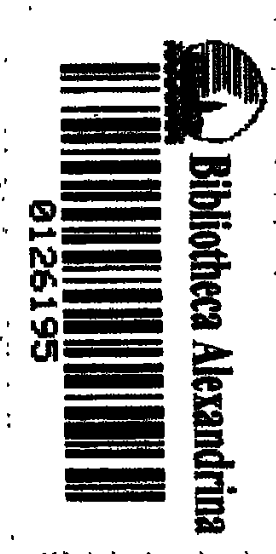
قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٥ »

الجزء الثاني



الدكتور
أحمد محمد الحوفي



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٥ »

أبو حيان التوحيدي

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور

أحمد محمد الحوفي

أستاذ تاريخ الأدب المساعد

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

مقدّمة

أحمدك اللهم ، وبك أستعين .

وبعد

— ١ —

فقد اتصلت بأبى حيان التوحيدى عن بعد ، حينما قرأت على عَجَل بعض موضوعات من كتابه (المقابسات) ، ثم بضعة موضوعات من كتابه (الهوامل والشوامل) ، ولكن هذا الاتصال العاجل أوحى إلىّ بإكبار علمه والإعجاب بفنه .

ثم اتصلت به عن قرب ، وعشت معه مدة من الزمن ، حينما شرعت أكتب هذه الدراسة ، فعَظُمَ إكبارى لعلمه ، وإعجابى بفنه .

وأيقنت أن الرجل مغبون القَدْر ، مهضوم المكانة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة اللفظية الذين ذاعت شهرتهم فى حياتهم ، وبعد مماتهم ، وما زالوا يُدرَّسون إلى اليوم على أنهم زعماء مدرسة ، أو أصحاب طريقة فى الكتابة ، كابن العميد وابن عباد والقاضى الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب .

والحق أن أبا حيان يَفْضُل هؤلاء جميعا ، ويَفْضُل أضرابهم من كتاب الزخرف والزينة ، كبديع الزمان الهمذانى والحريرى .

نعم ، يَفْضُلهم بعدة مزايا ، سنعرض لها فى الجزء الثانى من الكتاب ، حين نوازن بينه وبين كتّاب عصره .

وحسْبُه أنه كاتب يَحْفِل بالفكرة وبالعبارة معا ، وأنه يستلهم مشاعره

وعواطفه ، كما يعتمد على التأنق والافتنان ، وأنه قد جال بقلمه الفني في ميدان العلم والمعرفة ، فطوّع النثر للترجمة عن الثقافة في تعبير من الأدب الرفيع ، وبهذا كمل ما بدأه الجاحظ من قبل .

أما هؤلاء فلم يكونوا كذلك ، لكنهم نالوا من الشهرة والمجد ما حُرِمَه أبو حيان ، لأن بعضهم كانوا وزراء ، وكان لهم من نفوذهم السياسي ما أَضْفَى عليهم هالة من المجد ، وأضاف إلى أدبهم تقديرا لايستحقه ، ولأن الذوق الأدبي قد ضعف وانحرف منذ القرن الرابع ، فصار الأدب الرفيع هو المُثْقَلُ بالصناعة والزينة ، وإن كان خِلْواً من العاطفة ، فقيرا في الفكرة ، تافه الموضوع .

وكان هذا من أسباب غبن أبي حيان ، وحرمانه المكانة التي تبوأها أستاذه الجاحظ من قبل .

ولو أن عصره أنصفه ، ولو أن العصور اللاحقة أنصفته ، لكان مكانه الآن في الصدارة من كتاب العربية الأفذاذ ، ولاحتل منزلة عالية في تاريخنا الأدبي على مَرّ الزمن .

وإنه ليسعدني أن أساهم اليوم في إنصاف أبي حيان ، وفي التنويه بعلمه وأدبه ، وفي بيان ماله وما عليه .

— ٢ —

ولم يكن بُد في هذه الدراســـة من إلمامة بالمؤثرات في أدبه وفي حياته وفي مكانته ، قبل دراسة أدبه نفسه .

لهذا تحدثت عن عصره السياسي والعلمي والأدبي ، وتحدثت عن معالم حياته ، وأخلاقه ، وثقافته ، وصلاته بوزراء عصره ، وبؤسه ، وتدينه ، وتصوفه ، وأمانته في النقل والرواية ، واتهامه بالزندقة وبالوضع ، وإحراقه كتبه .

ثم عرضت لمؤلفاته كلها ، وحللت منها ما سَلِمَ من عوادى الدهر ، وذكرت من كل كتاب نماذج .

ثم درست فى تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن هذه الخصائص لا تتكشف على حقيقتها إلا بالموازنة المنصفة بينه وبين كتاب عصره .

وإذ كان أبو حيان كلِفاً بالجاحظ ، وتَرَدَّدَ فى القديم وفى الحديث أنه خليفة الجاحظ ، كان لابد من الموازنة بينهما .

وفى نهاية الدراسة خاتمة سجلتُ فيها ماهدتنى إليه الدراسة من جديد .

— ٣ —

وقد استقيت الحقائق من ثلاثة ينابيع :

الينبوع الأول: مؤلفات أبى حيان نفسها ، لأنها ناطقة صادقة فى تصوير كثير من أحواله وأحوال عصره .

والينبوع الثانى : دراسة القرن الرابع ، والإلمام بأحواله السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية .

والينبوع الثالث : ما كتبه القدماء عن أبى حيان — على قلته وتحامله ، فيما عدا ما كتبه ياقوت الحموى — وما كتبه المعاصرون .

ووجدت أننا قد اختلفنا فى المنهج والنتائج والأحكام ، وقد اتفقنا .

ولست أزعم أنى — فيما خالفتُ فيه — صاحب الرأى الصائب ، لأن من المجازفة أن يدعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف فى كل يوم عن جديد ، وتميط الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس .

وبعد

فهذا هو الجزء الثانى ، مكملا لموضوعات الجزء الأول . وأرجو أن تكون دراستى هذه موفقة تامة ، وما التوفيق إلا من عند الله ؟

أحمد محمد الحوفى

القاهرة

فى { جمادى الثانية ١٣٧٦
 يناير ١٩٥٧

مؤلفـــــــاته

أسماؤهـــا

خلّف أبو حيان إنتاجا قيّما كثيرا متنوعا .

ذكر ياقوت من مؤلفاته[1] :

(١) الهفوات لابن الصابى .

(٢) الصديق والصداقة (الصداقة والصديق) .

(٣) الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى .

(٤) الإمتاع والمؤانسة . جزآن .

(٥) الإشارات الإلهية . جزآن .

(٦) الزّلفة .

(٧) المقابسة (المقابسات) .

(٨) رياض العارفين .

(٩) تقريظ الجاحظ .

(١٠) ذم الوزيرين (وذكره أحيانا باسم مثالب الوزيرين أو أخلاق الوزيرين أو كتاب الوزيرين) .

(١١) الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى .

(١٢) الرسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة .

---

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٨

(١٣) الرسالة البغدادية .

(١٤) الرسالة فى أخبار الصوفية .

(١٥) الرسالة الصوفية أيضاً .

(١٦) الرسالة فى الحنين إلى الأوطان .

(١٧) البصائر . عشرة مجلدات (البصائر والذخائر) .

(١٨) المحاضرات والمناظرات .

ولم يذكر ياقوت هذه الكتب :

(١٩) الهوامل والشوامل .

(٢٠) ثمرات العلوم .

(٢١) الحجيج[١] .

(٢٢) رسالة فى العلوم[٢] .

وأغلب الظن أن كتاب الحجيج هو كتاب الحج العقلى . لكن خصوم أبى حيان حرفوا اسمه ، لينالوا من دينه . وقد عرفنا فى تدينه أنه حج فى جمع من الصوفية .

(٢٣) رسالة لأبى بكر الطالقانى . ذكرها بروكلمان ، وقال إن منها مخطوطا فى لندبرج .

(٢٤) رسالة الحياة . ذكرها بروكلمان ، وقال إن منها مخطوطا فى مكتبة شهيد على .

---

(١) أمراء البيان ٢/٤٩٣ محمد كرد على

(٢) مطبوعة بآخر الصداقة والصديق

وهذه المؤلفات أقسام :

(أ) بعضها قد طبع :

١ — فالمقابسات طبع بالهند ، وطبع بمصر سنة ١٣٤٧ — ١٩٢٩ بتحقيق الأستاذ حسن السندوبي .

٢ — والإمتاع والمؤانسة طبع بمصر بتحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين ، فى ثلاثة أجزاء أولها سنة ١٩٣٩ .

٣ — والهوامل والشوامل طبع بمصر سنة ١٣٧٠ — ١٩٥١ بتحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمر صقر .

٤ — والبصائر والذخائر طبع بمصر سنة ١٣٧٣ — ١٩٥٣ بتحقيقهما .

٥ — والصداقة والصديق طبع بالقسطنطينية ١٣٠١ .

٦ — والرسالة فى العلوم . رسالة صغيرة طبعت بمصر ملحقة بالصداقة والصديق . فى أربع ورقات .

٧ — والإشارات الإلهية . طبع بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى . بمصر .

(ب) وبعضها ما زال مخطوطا :

١ — مثالب الوزيرين . منه نسخة خطية بإحدى مكاتب الآستانة . وقد نقل ياقوت منه كثيرا .

٢ — الحجيج . منه نسخة بدارالكتب بلينينجراد[1] .

---

(١) أمراء البيان ٢/٤٩٣

(ح) وبعضها مفقود إلى الآن ، ولكن بقيت منها مقتبسات فى كتب أخرى :

١ — تقريظ الجاحظ . رآه ياقوت بخط المؤلف ، ونقل منه[١] .

٢ — الهفوات لابن الصابى (يريد الصاحب ابن عباد) ذكره ياقوت[٢] ونقل منه .

وأغلب الظن أنه هو مثالب الوزيرين ، أو الجزء الخاص منه بابن عباد .

٣ — الزلفة . نقل منه أبو شجاع محمد بن الحسين فى ذيل تجارب الأمم[٣] .

٤ — المحاضرات . ذكره ياقوت ونقل منه كثيرا فى أجزاء شتى من المعجم[٤] .

(ى) أما الكتب التى يغلب على الظن أنها مفقودة ، فهى :

١ — الرسالة البغدادية .

٢ — « فى أخبار الصوفية .

٣ — « الصوفية .

٤ — « فى صلات الفقهاء فى المناظرة .

٥ — « فى الحنين إلى الأوطان .

٦ — « الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى .

---

(١) معجم الأدباء ٣/٢٧ ، ٨/١٥ — ١٥١ ، ١٦/٩٠ — ٩١ و ٩٥ — ١٠٢

(٢) معجم الأدباء ١٥/٧

(٣) ذيل تجارب الأمم ٧٥

(٤) مثل ٨/١٥٠ و ١٥/٨ — ١٦ ، ٤٩ — ٥١

تحليلها

- ١ -

المقــــابسات

موضوعه

١ - سجّل فيه ما سمعه من فطاحل العلماء فى بغداد ، بمجلس صديقه وأستاذه أبى سليمان المنطقى محمد بن طـاهر بن بهرام السجستانى ، إذ كانوا يتذاكرون ويتحاورون فى موضوعات شتى من الفلسفة والأدب .

وهؤلاء العلماء من مذاهب متباينة ، فيهم الشيعى والشافعى والمعتزلى والملحد والمجوسى والصابىء واليعقوبى والنسطورى ، لكن الفلسفة جمعتهم ، وحب العلم هذب نفوسهم . وكان الغالب على تفكيرهم مذهب أرسطو ، وكانوا يطلقون لفكرهم العنان ، ولا يريدون غير الوصول إلى الحقيقة .

٢ - وأكثر موضوعاته دائر حول الفلسفة والنفس والتعليل وعلم الكلام الأخلاق . مثل :

والأخلاق المتباينة فى الإنسان(١) .

شرف الزمان ، والمكان وتفاوت الناس فى الفضيلة(٢) .

علة تفاوت وقع الألفاظ فى السمع ، والمعانى فى النفس(٣) .

كتمان السر وإفشاؤه(٤) .

---

(١) المقابسات ١٤٠ (٢) ١٤٢

(٣) ١٤٤ (٤) ١٤٥

ولوع كل ذى علم بعلمه[١] .

مبدأ الجوهر الصورة والمادة ، ومبدأ الحكم النقطة والوحدة ، ومبدأ الكيف السكون والحركة[٢] .

السماع والغناء وأثرها فى النفس ، وحاجة الطبيعة إلى الصناعة[٣] .

المناسبة بين المنطق والنحو[٤] .

السبب فى امتناع الرؤيا عند بعض النائمين[٥] .

الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة[٦] .

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب[٧] .

الرقى والعزائم[٨] .

الحظوظ والأرزاق[٩] .

لماذا لايمل أهل الجنة النعيم والأكل[١٠] ؟

الضحك : حقيقته وأسبابه[١١] .

الفرق بين الكلى والكل[١٢] .

---

(١) ١٤٧ (٢) ١٥٦
(٣) ١٦٣ (٤) ١٦٩
(٥) ١٩٠ (٦) ٢٢٣
(٧) ٢٢٦ (٨) ٢٧٠
(٩) ٢٤١ (١٠) ١٩٤
(١١) ٢٧٤ (١٢) ٢٩١

الصديق والصداقة والعشق والحب[١] .

حكم فلسفية من كلام أبي الحسن العامري[٢] .

٣ — وبعضها لغوي أدبي مثل :

إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم[٣]

ظرف المكان وظرف الزمان[٤] .

كلمة طبيعة عند النحاة وعند اللغويين ، أهي فعيلة بمعنى مفعولة أم بمعنى فاعلة[٥] ؟

النثر والنظم وأيهما أشد أثرا في النفس[٦] ؟

ما هية البلاغة والخطابة ، وهل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب[٧] ؟

٤ — وقليل منه متصل بالدين والتصوف مثل :

المعاد حق[٨] .

النوم شاهد على المعاد[٩] .

طريقته :

١ — سجل ما دار في مجالس الذين خالطهم فأثبت آراءهم ، ونقل عنهم .

---

(١) ٣٥٩ (٢) ٣٠١
(٣) ١٥٣ (٤) ١٧٢
(٥) ١٧٤ (٦) ٢٤٥
(٧) ٢٩٣ (٨) ٣٤٣
(٩) ٣٥٧

من ذلك أنه نقل عن أبى سليمان المنطقى كلاما فى تطهير النفس وتجريدها عن الشوائب البدنية[١] .

ونقل عن ابن مقداد كلاما فى الناموس الإلهى[٢] .

ونقل عن أبى بكر القومسى كلاما فى شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس فى الفضيلة[٣] .

وكما نقل عن أبى سليمان المنطقى كلاما فى التعليل لإفشاء السر[٤] .

وعن الأنطاكى[٥] وعن أبى إسحاق الصابى[٦] وعن الخوارزمى[٧] وعن يحيى بن عدى[٨] .

وكالمقابسة التى سجل فيها ما دار فى مجلس أبى سليمان محمد بن طاهر ابن بهرام السجستانى — وعنده الصيمرى والنوشجانى والقومسى والقومسى وغلام زحل وغيرهم[٩] — فى علم النجوم وارتباط السفليات بالعلويات .

٣ — لكنه لم يدع أنه وعى كلامهم بنصه ، وإنما يجتهد فى نقله جهده ، مع يقينه أن بعضه ندّ منه ، وأنه زاد فيه زيادة لا يستقيم الكلام إلا بها[١٠] .

---

(١) المقابسات ١١٩ (٢) ١٤٢
(٣) ١٤٣ (٤) ١٤٥
(٥) ١٤٦ (٦) ١٥١
(٧) ١٥٣ (٨) ١٥٦
(٩) ١٢٠ (١٠) ١٢٤

٣ — وأحيانا يحذف من محاورات العلماء ما لا يرى فيه فائدة ، كما فعل في المقابسة الخاصة بأن الإنسان قد يجمع أخلاقا متباينة ، إذ قال « وكان في كلامهم حشو كثير حصلت خالصة زبدته ، وذكرته في جملة الكلام[١] ».

٤ — وهو أمين في رواية الخبر ، فهو إذا حذف أو زاد أو شك فيما نقل أشار إلى ذلك ونبه عليه ، وإن لم يتصل بعقيدة دينية ، كقوله في إحدى مقابساته : قلت لأبي سليمان . فما النحو ؟ فقال — على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حده وتنقيحه — : إنه نظرٌ في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده[٢] ...

وقوله في أخرى وهو يروي ماسمع من أبي سليمان المنطقي : « ولما رق كلامه ، واعتاص لفظه ، وسقط عني إتقان كُلّ ما كنت حويته ، أثبته على ما تجده من الفَتْق والرَّتق والرَّفع الحَرْف[٣] » .

ويقول : سمعت بعض مشايخنا ببغداد ، وغالب ظني أنه نظيف الرومي يقول[٤] ...

ونقل دفاع أبي سليمان عن البعث ، وزاد عليه من عنده[٥] .

٥ — وكثيرا ما يسأل ، ويثبت إجابة المسئولين .

---

(١) المقابسات ١٤٠

(٢) ١٧٠

(٣) ٢٩٥

(٤) ٣٤٥

(٥) ٣٥٧

فقد سأل وهب بن يعيش الرّقّى[١] ، والصيمرى[٢] ، وأبا سليمان[٣] وهو أكثرهم موردا لسؤاله .

٦ — وكثيرا ما ينقل ويذكر الذين نقل عنهم :

فقد نقـل عن أبى إسحاق الصابى[٤] ، وعن النوشجانى[٥] ، وعن مقداد[٦] وعن عبيدة الـكاتب[٧] . وعن البديهى[٨] وعن أبى إسحاق النصيبى المتـكلم[٩] وعن أرسطو مما ترجم عيسى بن زرعة المنطق[١٠] ، وعن الحرانى[١١] .

نماذج من المقابسات

— ١ —

فى شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس فى الفضيلة

قلت لأبى بكر القومسى — وكان كبيرا فى الأوائل — : بأى معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟

فقال : هذا يشمر بإفاضة الزمان إلى سعادة شائعة ، وعز غامر ، وبركة

---

(١) ١٥٧ (٢) ١٦١ ، ٢٠١

(٣) ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٩٣ ، ٣١٩

(٤) ١٧٩ (٥) ١٨٣ ، ١٩٦

(٦) ١٨٨ (٧) ١٩٠

(٨) ١٩٢ (٩) ١٩٤

(١٠) ١٩٧ (١١) ٢٦٢

فائضة ، وخصب عام ، وشريعة مقبولة ، وخيرات مفعولة ، ومكارم مأثورة ، من جهة شكل الفلك بما تقتضيه بعض أدواره .

وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة ، والأعمال المنيفه .

وأما الزمان الذى هو رسم الفلك بحركته الخاصة ، فليس فيه جزء أشرف من جزء . وكذلك المكان ، لأنه رديف الزمان .

ولا سبيل فى مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق إلا بالأمانة التى هى شاملة للعالم ، غالبة عليه من محيطه إلى مركزه .

وأما الإنسان فلا شرف له أيضا على إنسان آخر ، من جهة حده الذى هو الحياة والنطق والموت ، لأن الحد فى كل أحد واحد . فإذاً لا شرف من هذا الوجه. فإن اعتبر بعد هذا فعل هذا وفعل ذاك من جهة الاختيار والإيثار والاكتساب والاجتلاب ، فذاك يقف على الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى، بحسب ما يوجد منظوما فى نفسه ، نافعا لغيره ، واقعا موقعه الأخص منه [1] .

— ٢ —

فى أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم

سمعت الخوارزمى الكاتب يقول لأبى إسحاق الصابى ابن هيثم بن هلال :

لم إذا قيل لمصنِّف أو كاتب أو خطيب أو شاعر — فى كلمة من كلام قد اختل شىء منه ، وبيت قد انحلّ نظمه ، ولفظ قَلِقَ مكانه — : هات بدل هذا اللفظ لفظا ، ومكان هذه الكلمة كلمة ، وموضع هذا المعنى معنى ، تهافتت قوته ، وصعب عليه تكلفه ، وبَعِلَ — حار ودهش — بمزاولة ذلك رأيه ؟

(١) ١٤٣

ولو رام إنشاء قصيدة مفردة ، أو تحبير رسالة مقترحة كان عسرها عليه أقل ، وكان نهوضه بها أعجل؟

فقال : رَفْعُ ما وَهَى يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول، ومن كان أولى به ، وكان كالأب له . وذلك شبيه بعلم الغيب ، وقلَّ من ينفذ فى حجب الغيب ، مع العوائق التى دونه .

وليس كذلك إذا افترع هو كلاما ، وابتدأ فعلا ، واقتضب حالا ، فهو يستقل حينئذ بنفسه ، ولا يحتاج فيه إلى شىء كان من غيره ، أو يكون تملقه بيقظته يعطيه تمام ما قد فَتَحَ عليه سَدَّه ، وقَدح عليه زَنده . ولم يكن هكذا حاله فى كلام معروض عليه ، لم يَهْجِس قط فى نفسه ، ولا أَعَدَّ له شيئا من فكره ، فقد يعجزه ما لم يتأهب له ، ولم يرُض نفسه عليه .

وفى الجملة كل مبتدىء شيئا فقوة البدء فيه تُفْضى به إلى غاية ذلك الشىء، وكل متعقب أمرا قد بدأ به غيره فإنه بتعقيبه يفضى إلى حد ما بدأ به فى تعقيبه ، ويصير ذلك مبدأ له ، ثم تنقطع المشاكلة بين المبتدىء وبين المتعقب[1] .

— ٣ —

فى أن الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع

قال أرسطو طاليس — فيما ترجم من كلام عيسى بن زرعة المنطقى البغدادى أبو على — : الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر على مركزه ، إلا أنه مرموق بطبيعته ، ملحوظ بأخلاق بهيمية ، ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله ، وسيَّب هواه فى مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه

(١) ١٥٣

بطبعه ، وكان لـيّن العريكة لاتباع الشهوات الرَّدِية ، فقد خرج عن أفقه، وصار إلى أرذل من البهيميّة ، لسوء إيثاره .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظٌ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظٌ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان .

لو روى هذا الحسنُ البصرى ومنصور بن عمار وضرباؤهما مازادوا على ذلك .

وقد اتفقت آراء الأوائل كلها على إصلاح السيرة ، وتصحيح الاعتقاد ، والسعى فيما أثمر وأجدى ، والإعراض عن كل ما شغل البال وأثار الشهوة ، لتبلغ النفس غايتها ، وتسعد فى عاقبتها ، ولا يكون لها عكس فى هذا العالم ولا تردد ، على ما قد خوّف من ذلك كثير منهم (١) .

---

(١) ١٩٧

الهوامل والشوامل

معنى الاسم:

(١) فسر الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر الهوامل بأنها الإبل المسيبة لا راعي لها ، وقالا : جعل أبو حيان مسائله التي سأل عنها كأنها إبل سائمة لا ضابط لها . وجعل مسكويه من إجابته عنها رعاة حفظة يرعونها ويضبطون أمرها ثم يرجعونها[١] .

(٢) لكني أخالفهما في هذا التأويل .

(أ) فالهوامل هي الإبل المهملة المسيبة التي لا راعي لها ، فمن الجائز أن أبا حيان أراد بها أسئلته المنطلقة الحرة التي تنتجع من يشبعها ، فهي إذاً كالإبل المسيبة .

ومن الجائز أن تكون جمعا لهاملة ، من هملت السماء أي دام مطرها في سكون[٢] ، والمراد إذاً الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى ابن مسكويه ، كأنها المطر النازل المدرار .

(ب) أما الشوامل فهي جمع لكلمة شامل أو شاملة ، من شملهم الأمر إذا عمهم[٣] ، والمراد إذاً الأجوبة الشاملة المحيطة المستوعبة لما في نفس السائل .

ويصح أن تكون الشوامل جمعا لكلمة شَوْمل ، وهي اسم من أسماء ريح الشمال التي تهب على بلاد العرب من ناحية الشام[٤] . والمراد إذاً الأجوبة

---

(١) مقدمة الهوامل والشوامل ٣

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط مادة همل

(٣) اللسان والقاموس مادة شمل

(٤) اللسان مادة شمل

المنعشة لشوق أبى حيان إلى العلم والمعرفة (فهى جمع شومل) كأنها نسمات الشمال الهابة على بلاد العرب من ناحية الشام .

وهو كتاب واحد ، وإن كان فى كلام أبى حيان ما قد يوهم أنهما كتابان ؛ لأنه قال فى المقابسات : « وهـــــذه مسألة فى الهوامل ، ولها جواب آخر فى الشوامل[١] » . فهو يريد أن هذا السؤال قد سأله لمسكويه فى أسئلته التى أطلق عليها الهوامل ، وله جواب غير جوابه هنا فى إجابات مسكويه التى سماها الشوامل .

من الذى سمى الكتاب :

أأبو حيان هو الذى سماه ؟

أم ابن مسكويه[٢] هو الذى سماه ؟

أرجح أن أبا حيان هو الذى اختار اسم الكتاب ، لأنه كان يرسل إلى ابن مسكويه سؤاله ، فيبعث إليه بالجواب . وأغلب الظن أن أبا حيان هو الذى جمع الأسئلة والأجوبة فى كتاب .

طريقة الكتاب :

الكتاب كله أسئلة من أبى حيان لمسكويه ، وإجابات من مسكويه على الأسئلة .

وقد كان أبو حيان عظيم الثقة فى مسكويه وفى علمه ، وإن جرّحه فى بعض ما كتب[٣] .

---

(١) المقابسات ١٤٦

(٢) هو أبو على أحمد بن يعقوب بن مسكويه . وهو يسمى مسكويه فقط عند أبى حيان عندصاحب طبقات الحكماء (مختصر الزوزنى ٣٣٢) وعند ياقوت (معجم الأدباء ٥/١٠، ١٧) ويسمى ابن مسكوية عنـد الآخرين ، وفى صدر كتابه تجارب الأمم وتهذيب الأخلاق .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/٣٥ ، ١٣٥

سأله سائل : هل تخرج الشريعة على مقتضى العقل ، وترد بما تأباه ويخالفه ويكرهه ولا يجيزه ، كذبح الحيوانات ، وكإيجاب الدية على العاقلة ؟

فأجابه أبو حيان ، ثم أراد أن يستوثق من صواب جوابه ، فسأل مسكويه ، وقال له : « وقد جهزت المسألة إليك ، وأنت المدّخر لغريب العلم ومكنون الحكمة . فإن تفضلت بالجواب ، وإلا عرضت عليك ما قلتُ للسائل ، ورويتُ ما دار بيني وبين المجادل ، فإن كان سديدا عرّفتنيه ، وإن كان ضعيفا نصحتني فيه ، فالعلم بعيد الساحل ، عميق الغور ، شديد الموج[1] » .

أما ملاحظاتنا على الأسئلة فهي :

١ — بعض الأسئلة ، قصير ، مثل :

ما سر النفس الشريفة في إيثار النظافة[2] .

ما الفراسة وماذا يراد بها[3] ؟

ما ملتمس النفس في هذا العالم[4]

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف[5]

ما السبب في محبة الإنسان الرئاسة[6] ؟

لم صار العروضي رديء الشعر ؟ والمطبوع على خلافه ؟ ألم تبن العروض على الطبع ؟ فما بالهما تخون ؟[7]

ما علة كراهية النفس الحديث المعاد ؟ [8]

---

(١) الهوامل والشوامل ٣١٥

(٢) الهوامل والشوامل ١٥٨

(٣) ١٦٦ — (٤) ١٧٩

(٥) ١٨٣ — (٦) ١٩٤

(٧) ٢٨٢ — (٨) ٣١٤

واستفسر عن كلمات لأحمد بن عبد الوهاب فى ممايأة الجاحظ[١]

لم كان صوت الرعد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا[٢] .

ما السبب فى صحة بعض الرؤى وفساد بعضها ؟ ولم لم تصح الرؤى كلها ؟

أو لم تفسد كلها ؟ وعلام يدل ترجحها بين هذين الطرفين[٣] ؟

٣ — وبعضها مبسوط مفصل ، لأن أبا حيان شقق من السؤال موضوعات ومسائل ، كقوله فى المسألة رقم (٤٩) :

ما السبب فى تصافى شخصين لاتشابه بينهما فى الصورة ، ولا تشاكل عندهما فى الخلقة ، ولا تجاور بينهما فى الدار ، كواحد من فَرْغانه[٤] وآخر من تاَهرْت[٥] وهذا طويل قويم ، وهذا قصير دميم ، وهذا شخت[٦] عَجْنَف[٧] ، وهذا عِلْج[٨] جِلْفٌ[٩] وهذا أَزَبٌ[١٠] أشعر[١١] وهذا أمْعَرٌ[١٢] أزعر[١٣] وهذا أعيا من باقل ، وهذا أبلغ من سحبان وائل . وهذا أجـــود من السحاب إذا سحّ بوَدْق[١٤] وهو بَرِق ، وهذا أبخل من كاب على عَرْق إذا ظفر بعرق[١٥]

---

(١) ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

(٢) ٣٦٥ (٣) ١٢٥

(٤) مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لتركستان

(٥) اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب

(٦) الشخت : النحيف

(٧) أعجف : غليظ العظام لالحم عليها

(٨) العلج : الشديد الغليظ

(٩) جلف : جاف أحمق

(١٠) أزب : كثير شعر الدراعين والحاجبين والعينين

(١١) أشعر : كثير شعر الرأس والجسد ، طويله

(١٢) أمعر : قليل الشعر

(١٣) أزعر : قليل الشعر ومتفرقه

(١٤) الودق : المطر

(١٥) العرق : العظم الذى أخذ عنه معظم اللحم

وبينهما من الخلاف والاختلاف ما يُعَجِّب الناظر إليهما والفاحص عن أمرهما.
وعلى ذكر الخلاف والاختلاف ، ما الخلاف والاختلاف ؟ وما الإلف والائتلاف ؟

نعم ، ثم لا تراهما إلا متمازجين فى الأخذ والإعطاء ، والصدق والوفاء ، والعقد والولاء ، والنقص والنماء ، بغير نِحْلة عامة ، ولا مقالة ضامة ، ولا حال جامعة ، ولا طبيعة مضارعة .

ثم هذا التصافى ليس يختص ذكراً وذكراً دون ذكر وأنثى ، ودون أنثى وأنثى .

وإذا تنفس الاعتبار أدى إلى طرق مختلفة : منها أن التصافى قد يمتد وقد ينقطع ، ففيما يمتد ما يبلغ آخر الدهر ، وفيما ينقطع ما لا يثبت إلا شهرا أو أقل من شهر .

ومن أعجب ما ينبع منه المداوة والشحناء والحسد والبغضاء ، حتى كأن ذلك التصافى كان عين التنافى ، وحتى يفضى إلى عظائم الأمور ، وإلى غرائب الشرور ، وإلى ما يُفنى التالد والطارف ، ويأتى على البقية المرجوّة .

وربما سرت المداوة فى الأولاد كأنها بعض الإرث ، وربما زادت على ما كان بين الآباء .

وهذا باب عَسِرٌ ، وللتعجب فيه مجال وموقع ، والملل فيه مخبوءة . وقلما تصيب فى زمانك هذا ذهنا يولع بالبحث عن غامضه ، ويَلْهَجُ بالمسألة عن مُشْكِلة .

وليتهم إذ زهدوا فى هذه الحكم لم يقذفوا الخائفين فيها ، والمنقّبين عنها بالتهم » (1)

وكذلك فعل فى السؤال رقم (٥٠) فهو يستغرق صفحتين كاملتين [١]

وأحيانا يفرع من السؤال عدة أسئلة ، أو يولد من الفكرة أفكارا ، فهو يتعمق فى سؤاله تعمق من يبتغى الوقوف على العلة الأولى .

وقد شعر ابن مسكويه بذلك فطالبه بالرفق ، واعتذر له بأنه لا يدعى العلم بكل ما يريد الإجابة عليه . يتضح ذلك من سؤاله الآتى :

لم تواصى الناس فى جميع اللغات والنحل ، وسائر العادات والملل ، بالزهد فى الدنيا ، والتقلل منها ، والرضا بما زَجَا به الوقت (يسَّره) وتيسر مع الحال ؟

هذا مع شدة الحرص والطلب ، وإفراط الشدّة والكَلَب ، وركوب البر والبحر بسبب ربح قليل ونائل نَزْر ، حتى إنك لا تجد على أديمها إلا متلفِّتا إلى خانيها حزينا ، أو هائما على حاضرها مفتونا ، أو متمنياً لها فى المستقبل مُعَنى ، وحتى لو تصفحت الناس لم تجد إلا متحسرا عليها ، أو متحيراً فيها ، أو مُسكَّراً منها وأشرفهم عقلا أعظمهم خَبَلا ، وأشدهم فيها إزهادا (حثا على الزهد) أشدهم بها انعقادا ، وأكثرهم فى بغضها دعوى أكثرهم فى حبها بلوى .

وهات السبب فى ذلك والعلة .

وعلى ذكر السبب والعلة ، فما السبب والعلة ؟ وما الواصل بينهما إن كان واصل ؟ وهل ينوب أحدهما عن الآخر ؟

وإن كانت هناك نيابة أفهى فى كل مكان وزمان ؟ أو فى مكان دون مكان ؟ وزمان دون زمان ؟

وعلى ذكر المكان والزمان ، ما الزمان وما المكان ؟ وماوجه التباس أحدهما بالآخر ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟ والدهر والحين واحد ؟

(١) ١٢٤

وإن كان كذا فكيف يكون شيئان شيئا ؟ وإن جاز أن يكون شيئان شيئا واحدا ، فهل يجوز أن يكون شيء واحد شيئين اثنين ؟ هذا ـ أيدك الله ـ فن يَنْشَف الريق ، ويُضرع الخد ، ويُجيش النفس ، ويفضح المدعى ، ويبعث على الاعتراف بالتقصير والعجز ، ويدل على توحيد من هو محيط بهذه الغوامض والحقائق ، ويبعث على عبادة من هو عالم بهذه السرائر والدقائق . . .
ويبين أن العلم بحر ، وفائت الناس أكثر من مُدْرَكه ، ومجهوله أضعاف معلومه ، وظنه أكثر من يقينه . . . »

فأجابه مسكويه ، وصدر إجابته بقوله :

هذه المسألة مُوَشَّحة بعدة مسائل طبيعية ، وقد جعلتها مسألة واحدة . ولعل التى صيرتها أذنابا هى أشبه بأن تكون رءوسا .

وقد عرض لك فيها عارض من العُجب ، وسانح من التيـــه ، فخطرت خطران الفحل (١) ومشيت العِرِضْنَة (٢) . . . فلو تركت هذا الغرض للمتكلم على مسائلك .

ارفق بنا أبا حيان — رفق الله بك — وأرْخِ من خناقنا ، وأسِغنا ريقنا ، ودعنا وما نعرفه فى أنفسنا من النقص ، فإنه عظيم ، وما بُلينا به من الشكوك فإنه كثير . ولا تُبَكّتنا بجهل ما علمناه وفوت ما أدركناه . . . (٣)

ومثل قوله :

ما ملتمس النفس فى هذا العالم ؟

---

(١) خطر الفحل بذنبه : رفعه مرات وضرب به ما ظهر من فخذيه يمينا وشمالا وذلك عند صولته ولنشاطه من الشبع والسمن . كناية عن العجب

(٢) العرضنة : الاعتراض فى السير من النشاط . وهذا كناية عن العجب

(٣) الهوامل والشوامل ٢٤

وهل لها ملتمس وبغية ؟

وإن وُشِّيَتْ بهذه المعانى خرجَتْ من أن تكون عِلمية الدرجة ، خطيرة القدر ، لأن هذا عنوان الحاجة ، وبدء العجز .

ولولا أن يتسع النطاق لسألت : مانسبتها إلى الإنسان ؟ وهل لها به قِوام ؟ أوله بها قوام ؟ وإن كان هذا فعلى أى وجه هو ؟

وأوسع من هذا الفضاء حديث الإنسان ، فإن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان » .

وكان فى الأسئلة ماأهمل الإجابة عليه مسكويه بدليل قوله « ثم حكيت حكايات ليس لها غناء فى المسألة ، فلمشتغل بالجواب » [1]

٣ — بعض الأسئلة ذو قيمة ، كالأسئلة التى مرت .

وبعضها تافه كقوله :

لم يشمئز الإنسان من جُرح قد قُشِروه ، حتى إنه لينفر من النظر إليه والدنوّ منه ؟ [2] .

ما السبب فى أن الذين يموتون وهم شبان أكثر من الذين يموتون وهم شيوخ [3]

ما معنى قول بعض القدماء : العالم أطول عمرا من الجاهل بكثير ، وإن كان أقصر عمرا منه [4] ؟

٤ — أما طريقة مسكويه فى الإجابة ، فإنها فى الأعم الأغلب مفصلة .

---

(١) الهوامل والشوامل ١٧٩

(٢) الهوامل والشوامل ١٤٥

(٣) ٢٣٨ (٤) ٢٨٤

وفى قليل منها إيجاز وإيماء ، أو إحالة على معلوم ، أو على جواب سابق(١) .

وربما يرفض الإجابة ، كقوله : ذكرت — أيدك الله — مسائل لاتستحق الجواب من آراء العامة ، وجهالات وقعت لهم ، مثل قولهم : إذا دخل الذباب فى ثياب أحدهم يمرض . وقولهم : دِيَةُ نملة تمرة ... وهذه المسائل وأشباهها إنما ينبغى أن يُهزأ بها ، ويُتَمَلَّح بإيرادها على طريق النادرة . فأما أن تطلب لها أجوبة ، فما أظن عاقلا يعترف بها ، فكيف نجيب عنها ؟ والله يغفر لك ويصلحك(٢)

موضوعاته

الكتاب — من حيث الأسئلة والإجابات — بستان حافل بصنوف المعرفة المتنوعة ، لا جامع لها ولا ضابط .

ولهذا عنون أبو حيان لبعضها ، وترك الآخر غُفْلا .

١ — ففيه (مسائل إرادية) كقوله : لم سَمُج مدح الإنسان لنفسه ، وحسن مدحه لغيره ؟ .

وما الذى يحب الممدوح من المادح ؟ وما سبب ذلك(٣) ؟

وكقوله :

ما الذى يجده الإنسان فى تشبيه الشىء بالشىء حتى يخطر ذلك المعنى على قلبه ، ويلهج بذكره فى قوافيه ونثره ؟

ولماذا — إذا لم يكن التشبيه واقعا ، والمعنى فيه بارعا — أورث الصدود ومنع الاستحسان(٤) ؟

---

(١) الهوامل والشوامل ١٣ ، ٢٦ ، ١٠٨ ، ١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٥٥ ، ٣٣٥

(٢) الهوامل والشوامل ٣٣٩

(٣) الهوامل والشوامل ١١٧ (٤) ١٢٤

٢ — (وفيه مسائل اختيارية) . وهو يريد بهاما كان فى طاقة الشخص أن يفعله أو يتركه ، فهى كالإرادية .

مثل قوله :

لم قبح الثناء فى الوجه حتى تواطئوا على تزييفه[1] ؟

٣ — وفيه (مسائل نفسانية) كقوله :

ما علة حضور المذكور عند مَقْطع ذِكْره ، وهو لا يُتَوَقَّع فيه[2] ؟

٤ — ومسائل فى مبادىء العادات ، كقوله :

ما مبدأ العادات المختلفة من هذه الأمم المتباعدة ؟ وما هذا الباعث الذى رَتَّبَ كل قوم فى الزى وفى الحلية وفى العبارة والحركة على حدود لا يتعدونها[3]

٥ — ومسائل طبيعية كقوله .

ما السبب فى اشتياق الإنسان إلى مامضى من عمره ، حتى إنه ليحن حنين الإبل ، ويبكى بكاء المتململ ، ويطول فكرُه بتخيله ماسلف ؟[4] .

وكقوله :

ماسبب من يدعى العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده[5] ؟

لم صار الأعمى يجد فائته من البصر فى شىء آخر ؟ كما نجد من العميان مَنْ يكون نَدِىّ الحلق ، طيب الصوت ، غزير العلم ، سريع الحفظ ، قليل الهم ، طويل التمتع[6] :

---

(١) الهوامل والشوامل ٤٥ (٢) ٩٢ (٣) ١٢١

(٤) الهوامل والشوامل ٣٧ (٥) ٤٣ (٦) ٦١

وكقوله :

لم كانت النجابة فى النحاف أكثر ؟ ولم كانت الفسولة فى السمان أكثر ؟(١)

٦ — ومسائل خلقية ، كقوله :

لم اقترن العجب بالعالم ، والعلم يوجب خلاف ذلك من التواضع والرقة وتحقير النفس والزراية عليها بالعجز(٢) ؟

لم خُصّ اللئيم بالحلم ؟ وخص الجواد بالحدة (٣) ؟

لم تحاث الناس على كتمان الأسرار ، ومن أين كان فشوّها مع الاحتياط فى طيها(٤) ؟

٧ — ومسائل طبيعية وخلقية معاً ، كقوله :

ما سبب الصيت الذى يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملا ، ويشتهر ميتا(٥) ؟

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت(٦) ؟

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر ، وآخر يزيد على عمره فى الخبر(٧) ؟

٨ — وفيه مسائل طبيعية واختيارية كقوله :

لم كان الإنسان محتاجا إلى أن يتعلم العلم ؟ ولا يحتاج إلى أن يتعلم الجهل ؟

---

(١) ٧٦ (٢) ٤٠
(٣) ٥٠ (٤) ١٥
(٥) ٦٩ (٦) ٧٢ (٧) ٧٨

ألأنه فى الأصل يوجد جاهلا ؟ فما علة ذلك[١] ؟
لم قال الناس : لا خير فى الشركة[٢] ؟

٩ — ومسائل لغوية :

كان أول سؤال وجهه إلى مسكويه هو التفرقة بين كلمات لغوية كالعجلة والسرعة والهزل والمزح والتكلم والنطق والسرور والحبور الخ[٣]

١٠ — ومسائل لغوية وطبيعة كقوله :

لم كان اسم أخف عند السماع من اسم ؟

ولم كان هذا العارض الموجود فى الأسماء والكنى والشمائل والحِلَى والصور والبِنى والأخلاق والخلق والبلدان والأزمان[٤] ؟

١١ — ومسائل زجرية ولغوية ، مثل قوله :

لم صار الرجل إذا لبس كل شيء جديد قيل له : خذ ممك بمض مالا يشا كل ما عليك ايكون وقاية لك ؟

وعلى ذكر المشاكلة ما المشاكلة والموافقة والمضارعة والمماثلة والمعادلة والمناسبة[٥] ؟

١٢ — ومسائل طبية ، كقوله :

لم صار الصَّرْع من بين الأمراض صعب العلاج ؟

---

(١) الهوامل والشوامل ٢ ٥
(٢) ٦٤ (٣) ٥ (٤) ٢٠
(٥) ٨٨

ويقال إنه فيمن طعن فى السن أصعب ، وفى الصبي اللين العود أقرب أمراً وأسهل برءاً[١]

١٣ — وأحيانا يعنون للسؤال بعدة أمور ، كقوله : مسألة إرادية وخلقية ولغوية[٢] .

وقد يعنون بكلمة مسألة ، ثم يذكر السؤال

كالمسألة رقم (٣٥)

ما معنى قول الناس : هذا من الله ، وهذا بالله ، وهذا إلى الله ، وهذا على الله[٣] ...

والمسألة رقم (٣٦)

ما الإلف الذى يجده الإنسان لمكان يكثر القعود فيه ، والشخص يتقدم الأنس به[٤]

والمسألة رقم (٣٨)

والمسألة رقم (٣٩)

لم صار بعض الناس يولع بالتبذير مع علمه بسوء عاقبته ؟

وآخر يولع بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه (٥) ؟

وكذلك المسائل من المسألة رقم ٥٠ إلى ١٧٥ وهى أكثر الكتاب .

---

(١) ١١٢

(٢) ١١٨

(٣) ١٠٨ (٤) ١١٠ (٥) ١١٥

أسلوب الإجابات :

قلنا إن أبا حيان كان دقيقا أمينا فى نقله وفى روايته ، فإذا نقل النص بحروفه نبه على ذلك ، وإذا نقله بالمعنى اعترف بذلك ، وإذا تصرف فيه بزيادة أو نقص سارع فقرر ذلك .

فهل تصرف أبو حيان فى أسلوب الإجابات التى بعثها إليه مسكويه ؟

لا . لم يتصرف أبو حيان فى شىء ، وإنما أثبت كلمات مسكويه على حالها .

والدليل على هذا :

١ — أن أبا حيان لم يحذف من كلام مسكويه مافيه مساس به أو بذاكرته(١) أو بسؤاله عن أشياء ليس لها غناء(٢) .

٢ — أما الدليل الآخر فهو أن أسلوب مسكويه فى الجواب هو أسلوبه فى كتابه تهذيب الأخلاق ، ولا تشابه بين أسلوب أبى حيان وأسلوب مسكويه .

وهذا مثال لأسلوب مسكويه فى الهوامل والشوامل ، ومثال لأسلوبه فى كتابه تهذيب الأخلاق .

(١) سأل أبو حيان مسكويه :

متى تتصل النفس بالبدن ؟ ومتى توجد فيه ؟ أفى حال ما يكون جنينا أم قبلها أم بعدها ؟

فأجابه بقوله : إن اتصال النفس بالبدن ووجودها فيه ألفاظ متسمح فيها .

والأولى أن يقال : ظهور أثر النفس فى البدن على قدر استعداد البدن

---

(١) الهوامل والشوامل ٢٤ (٢) ١٧٩

وقبوله إياه . وإنما تحرزنا من تلك الألفاظ لأنها توهم أن لها اتصالا عرضيا وجسميا ، وكلا هذين غير مطلق على النفس .

والأشبه إذا عبرنا عن هذا المعنى أن نقول :

إن النفس جوهر بسيط إذا حضر مزاج مستعد لأن يقبل له أثراً كان ظهور ذلك الأثر على حسب ذلك الاستعداد ، لنسلم بهذه العبارة من ظن مَن زعم أن النفس تتقلب وتفعل أفعالها على سبيل القصد والاختيار . أعنى أنها تفعل فى حال ، وتمتنع فى أخرى ، فإن هذا يجلب كثيرا من الشكوك التى لا تليق بخصائص النفس وأفعالها . وإذ قد تحققت هذه العبارة فنقول : إن النطفة التى يكون منها الجنين إذا حصلت فى الرحم الموافق كان أول ما يظهر فيه من أثر الطبيعة ما يظهر مثله فى الأشياء المعدنية . أعنى أن الحرارة اللطيفة تنضجه وتسخنه وتمطيه — إذا امتزج بالماء الذى يوافقه من شهوة الأنثى — صورة مركبة ، كما يكون ذلك فى اللبن إذا مزج بالإنفحة (١)

(ب) قال مسكويه فى كتاب تهذيب الأخلاق :

« لما وجدنا فى الإنسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه ، وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه ، حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ، ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة للأجسام والأعراض إنما هى من حيث كانت الأجسام أجساما والأعراض أعراضا ، حكمنا بأن هذا الشىء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا . وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ولا نقص (٢) »

---

(١) الهوامل والشوامل ٣٥٠ (٢) تهذيب الأخلاق ٤

وقال فى آداب الصداقة :

« يجب عليك متى حصل لك صديق أن تكثر مراعاته ، وتبالغ فى تفقده ، ولا تستهن باليسير من حقه ، عند مهم يعرض له ، أو حادث يحدث به .

فأما فى أوقات الرخاء فينبغى أن تلقاه بالوجه الطلق ، والخلق الرحب ، وأن تظهر له — فى عينك وحركاتك وفى بشاشتك وارتياحك عند مشاهدته إياك — ما يزداد به فى كل يوم وكل حال ثقة بمودتك ، وسكونا إليك ، ويرى السرور فى جميع أعضائك التى يظهر السرور فيها إذا لقيك . فإن التحفى الشديد عند طلعة الصديق لا يخفى ، وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل .

ثم ينبغى أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحبه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية ، وتثنى عليهم من غير إسراف يخرج بك إلى الملق الذى يمقتك عليه ، ويظهر له منك تكلف .

وإنما يتم لك ذلك إذا توخيت الصدق فى كل ما تثنى به . والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجوه ، وفى حال من الأحوال ، فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ، ويكسب الثقة التامة[1] »

---

(١) تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه ١٣٤

نماذج من الهوامل والشوامل

— ١ —

مسألة طبيعية

ما سبب من يدعى العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده ؟ وما الذى يحمله على الدعوى ، ويدنيه من المكابرة ، ويحوجه إلى السفه والمهاترة ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :

سبب ذلك محبة الإنسان نفسه ، وشعوره بموضع الفضيلة ، فهو لأجل المحبة يدعى لها ما ليس لها ؛ لأن صورة النفس التى بهـا تحسُن ، وعليها تحصل ، ومن أجلها تسعد — هى العلوم والمعارف ، وإذا عريت منها أو من جلها حصّلت له من القبائح ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك .

ومن شأن المحبة أن تغطى المساوىء ، وتظهر المحاسن إن كانت موجودة ؛ وتدعيها إن كانت معدومة ، فإن كان هذا من قبل المحبة معلوما ، وكانت النفس محبوبة لا محالة ، عرض لصاحبها عارض المحبة . فلم ينكر ادعاء الإنسان لها المعارف التى هى فضائلها ومحاسنها ، وإن لم يكن عندها شىء من ذلك ؟[1]

---

(١) ٤٣

— ٢ —

مسألة اختيارية

لم قبح الثناء فى الوجه حتى تواطئوا على تزييفه ؟ ولم حسن فى المغيب حتى عنى ذلك بكل معنى ؟ ألأن الثناء فى الوجه أشبهَ الملق والخديعة ؟ وفى المغيب أشبه الإخلاص والتكرمة ؟ أم لغير ذلك ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

لما كان الثناء فى الوجه على الأكثر إعارة شهادة بفضائل النفس، وخديعة الإنسان بهذه الشهادة، حتى صار ذلك — لاغتراره وتركه كثيرا من الاجتهاد فى تحصيل الفضائل، وغرضُ فاعلِ ذلك احتراز مودة صاحبه إلى نفسه بإظهار مودته له ومحبته إياه — صار كالمكر والحيلة، فذُمّ وعيب. فأما فى المغيب فإنما حَسُنَ؛ لأن قَصْدَ المثنِى فى الأكثر الاعترافُ بفضائل غيره، والصدق عنه فيها.

وفى ذلك تنبيهٌ على مكان الفضل، وبعثٌ للموصوف والمستمع على الازدياد والإتمام، وحضٌّ على أسبابه وعلله.

وربما كان القصد خلافَ ذلك، أعنى أن يكون غرضُ المثنِى فى المغيب مخادعةَ المثنَى عليه، والطمعَ فى أن يبلُغه ذلك، فيَتَنَفَّق عليه، ويستميله ويَستَجِرّ به منافعه، وهو حينئذ شبيه بالحالة الأولى، ومُستَقبح.

وربما قصد الأولُ فى الثناء والمدح فى الوجه الصدقَ لا الملقَ ، فيصير مستحسنا إلا بقدر ما يُظَنّ أن الممدوح يغتَرّ به ، فيُقصرُ فى الاجتهاد .

فقد تبين أن الثناء يحسن بحسب قصد المثنى وأغراضه ، وبحسب صدقه فيه وكذبه ، وعلى قدر استصلاحه للمثنَى عليه أو استفساده ، ولكن الأمر محمول على الغالب فى الظن والعادة فيه .

ولما كان الأمر على الأكثر كما ذكرناه وعلى ما حكيناه — قبح فى الوجه وحسن فى المغيب ، وإن جاز أن يقع بالضد فيحسن فى الوجه ويقبح فى المغيب[1] .

— ٣ —

مسألة طبيعية خلقية

ما سبب الصيت الذى يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ، ويشتهر ميتا ، كمعروف الكَرْخى ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :

معظم السبب فى ذلك الحسد الذى يعترى أكثر الناس ، لا سيما إذا كان المحسود قريب المنزلة من الحاسد ، أو كان فى درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبهها ، فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها ثم انفرد واحد بفضيلة نافسه الباقون فيها ؛ وحسدوه إياها ، حتى يحملهم الأمر

---

(١) ٤٥

على أن يَجْحدوه آخر الأمر ، ولذلك قيل : أزهدُ الناس فى عالم جيرانه ؛ لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوَوْن فيه ، فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لحق الباقين ما ذكرته .

وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب ما ذكرته .

فأما البعيد الأجنبي فإنه لما لم يجمعه وإياه سبب ، خف عليه تسليم الفضل له ، وقل عارض الحسد فيه ؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذى بينه وبين الحساد أنشئوا يفضلونه ، ويسلمون له ما منعوه إياه فى حياته[1] .

— ٤ —

مسألة خلقية

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر ، وآخر يزيد على عمره فى الخبر ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :

غرض الرجلين جميعا أعنى الناقص من مدة عمره ، والزائد فيها — غرض واحد ، وإن اختلفا فى الخبر .

وربما فعل الرجل الواحد ذلك بحسب زمانين مختلفين ، أو بحسب حالين فى زمان واحد .

وهو من رذائل الأخلاق ؛ لأنه يوهم بالكذب فضيلة لنفسه ليست فيها -

(١) ٦٩

وسبب هذا الفعل محبة النفس ؛ وذاك أن الإنسان يحب أن يعتقد فيه من الفضل أكثر مما هو ، ويحب أن يعذر فى نقص إن وجد فيه .

وهو إذا كان حَدَثاً وظهرت منه فضيلة أو نقيصة نَقَصَ من زمان عمره ، ليعلم غيره أن الفضيلة حصلت له فى زمان قصير ، وأن ذلك لم يكن ليتم له إلا بعناية كثيرة ، وحرص شديد ، ونفس كريمة ، وانصراف عن الشهوات الغالبة على أقرانه ، وترك اللعب الذى هو يستولى على لداته ؛ وكلما كان الزمان أقصر كان إلى الفضيلة أقرب ، وكان التعجب منه أكثر ...

وإن كانت منه نقيصة عُذِر فى فعله لقلة الحنكة والدربة ، وانتظر فلاحه ، ورُجى تلافيه وإنابته .

وإن الإنسان مرشح طول عمره لاقتناء الفضائل ، والاستكثار من المعارف، ويجب أن يكون أبداً بحال من الفضل يُستَكثَر فى مثل سنه أن يبلغ إليها ، أو يُتَعَجبُ من كثرة تدربه بالزمان القصير فى الأمور التى يحتاج فيها إلى الزمان الطويل .

وأيضا فإن المكتهل ، وذا السن ، الكثير التجربة ممن صحب الزمان ، ولقى الرجال ، وتصرف فى العلوم — مهيب فى النفوس ، جليل فى الصدور موقر فى المجالس ، ومستشار فى النوائب ، مرجوع إليه فى الرأى . وهذه حال مرغوب فيها ، فإذا بلغ الإنسان من السن ما يحتمل أن يَدَّعى فيه هذه الدعوى ، أو يشبه نفسه بأصحاب هذه المراتب — زاد فى عمره ؛ لتسلم له هذه المرتبة فتعتقد فيه .

فكل واحد من الرجلين ، أو الرجل الواحد فى الزمانين أو الحالتين ، غايته

ى التكذّب بما يَنْقُصُ أو يزيد من عمره ، التمويه بالفضل ، وادعاء رتبة ليست له .

وهذا شرٌّ ظاهر ، فمتعاطيه شرير ، وأفاضل الناس لا يعتريهم هذا الشر ، لأنهم لا يتدنسون بالكذب ، ولا يتكثّرون بالباطل[1] .

— ٥ —

مسألة

لم صار لبعض الناس يولع بالتبذير مع علمه بسوء عاقبته ؟

وآخر يولع بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه ؟

وما الفرق بين الرزق والمِلْك ؟ فقد قال لى شيخ من الفلاسفة — وقد سمعنى أشكو الحال — يا هذا ، أنت قليل المِلْك كثير الرزق ، وكم من كثير الملك قليل الرزق[2] ، احمد الله عز وجل .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :

قد تقدم لنا فى هذه المسائل كلام فى السبب الذى يختار الناس له فعل

(١) ٧٨

(٢) لعله يريد أن الرزق أوسع من الملك ، لأن الملك حيازة المال ، أما الرزق فيشمل ما وهب الإنسان من مال وذكاء وعلم وخلق

ما تقبح عاقبته مع علمهم بذلك ، وضربنا فيه المثل بالمريض الذى يعلم أن تناول الغذاء الضار يُبطل صحته ، فإن الغذاء إنما احتيج إليه للصحة ، فيَستَختار للشهوة الحاضرة أخذَ الغذاء الضار بسوء ملكته ، وضبطه لنفسه ، وانقياده للنفس البهيمية ، وعصيانه للنفس الناطقة ، ولا وجه لإعادته .

وكذلك قد بيّنا ماهيّةَ الرزق ، والفرق بين الملك والرزق ، وإذا قرأته مما تقدم كان جوابا لهذه المسألة[1] .

---

١) ١١٥

الإمتاع والمؤانسة

لمن ألفه ؟

١ — عرفنا في صلات أبي حيـــان بوزراء عصره أنه اتصل بالوزير ابن سعدان .

وابن سعدان هذا هو — كما رجح الأستاذ أحمد أمين — أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعــدان ، وزير صمصام الدولة البويهي من ٣٧٣ إلى ٣٧٥ هـ ، وهو الذي ألف له أبو حيان كتاب الصداقة والصديق سنة ٣٧١ هـ قبل أن يتولى الوزارة[١] .

وهو لم يؤلف هذا الكتاب جملة ، ليهديه إلى ابن سعدان ، وإنما سامره به وحدثه في سبع وثلاثين ليلة .

وكان ابن سعدان — كما يصوره أبو حيان — مشغوفا بالمعرفة من فنون شتى ، كالفلسفة والأخلاق والأدب واللغة والدين والإلهيات .

وكثيرا ما سأل أبا حيان وحاوره ، ونقد إجابته ، سواء أكانت من محفوظ أبي حيان أم من اجتهاده ورأيه .

وكان مجلسه مجمعا للأدباء والعلماء كابن حجاج الشاعر ، وأبي عبيد الخطيب الكاتب ، وأبي حيان التوحيدي ، وابن مسكويه المؤرخ المتفلسف ، وأبي علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف ، وأبي الوفاء المهندس ، وابن بكر ، وأبي

---

(١) مقدمة الإمتاع والمؤانسة هـ — ط

القاسم الأهوازى ، وأبى سعد بهرام بن أزدشير ، وابن شاهويه ، وزيد ابن رفاعة وغيرهم[1] .

وكان يباهى بجلسائه ، وبما يدور فى مجالسه من علم وأدب ، وينافس الوزراء والأمراء المعاصرين له ، مثل ابن العميد والصاحب ابن عباد والمهلبى .

من ذلك قوله فى وصف جلسائه: « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل . وإذا خلا العراق منهم فرّقن[2] على الحكمة المروية والأدب المتهادَى .

أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ؟ أو تتقدَّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل مَنْ فيهم » ؟

فقال له أبو حيان : هذا ابن عباد بالرى ، وهو من يُعرَف ويُسمع . فقال ابن سعدان : « ويحك ، وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذى يَشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخانا أبو على وأبو هاشم »[3] . . .

وكان أبو الوفاء المهندس (محمود بن محمد بن يحيي بن إسماعيل بن العباس البوزجانى المولود سنة ٣٢٨ والمتوفى سنة ٣٨٨ هـ) صديقا لأبى حيان ، وللوزير ابن سعدان ، فعرف الوزير بأبى حيان ، فقربه ، واتخذه من سماره .

ثم عاتب أبو الوفاء أبا حيان على أنه اختص الوزير بسمره ، وذكره بفضله

---

(١) الصداقة والصديق ٣١

(٢) رقن : الترقين الترقيم وتقط الخط وإعجامه ليتبين . والمراد أن الحكمة بعد هؤلاء تصير مبهمة فى حاجة إلى من يجلوها

(٣) الصداقة والصديق ٣٣

عليه فى تقديمه إلى ابن سعدان ، وطلب منه أن يكتب له كل ما قصه على الوزير فى لياليه ، وشدد فى طلبه ، وهدده أن يجفوه ويعاقبه إن لم يستجب .

فاستجاب أبو حيان ، ودوّن مسامراته فى هذا الكتاب[1] . وزاد فى الحسن ، ونقص من القبيح[2] . وكان يرسله إلى أبى الوفاء أجزاء ، لأنه قال فى أول الجزء الثالث : أوصلت إليك الجزأين الأول والثانى على يد غلامك فائق ، وهذا الجزء هو الثالث[3] .

وكان أبو الوفاء هذا بارعا فى الهندسة والجبر والفلك ، وله مؤلفات فيها .

وكان من المقربين إلى ابن سعدان ، وقد وصفه ابن سعدان فيمن وصف من رجاله بقوله : « وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقمد به عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، وإشارته ناقصة . هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى إذا تخَرْسن كان أحلى وأظرف من الخراسانى إذا تبغدد »[4] .

وكان ابن سعدان يلقبه بشيخه[5] .

٢ — ومن هنا نعرف أن القفطى أخطأ فى قوله إن أبا حيان ألفه لأبى سليمان السجستانى المنطقى ، لأنه كان أعور وبه وَضَحٌ ، فانقطع عن الناس ، ولزم منزله ، فلا يتردد عليه إلا طالب علم ومستفيد ، وكان يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة ، فينقل إليه من يغشاه من الأجلاء بعض أخبارها .

وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يغشى

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٣ — ١٠

(٢) ١/٩ (٣) ٢/١٨٦

(٤) الصداقة والصديق ٣٢ (٥) الإمتاع ١/١٩

مجالس الرؤساء ، ويطلع على الأخبار ، فينقل إلى أبي سليمان ما يعلمه . ولأجله صنّف كتاب الإمتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة . . .

وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدّثا ، وختمه سائلا ملحفا[1] .

طريقته :

كان ابن سعدان يسأل أبا حيان ، فيجيبه .

وأحيانا كان ابن سعدان يتخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى ، يفرعها[2] .

وأحيانا يطرح عليه السؤال ويمهله إلى الغد ليجيب ، أو يمهله إلى أجل غير معلوم ، حتى يقرأ ويسأل ويباحث غيره ، ثم يجيب شفها أو كتابة .

ولقد يسمع منه بعض الجواب ، ويرجىء باقيه إلى أن يكتبه أبو حيان ويبيضه[3] .

ولقد يروقه الجواب فيطلب من أبي حيان أن يكتبه ليردد نظره فيه « لله در هذا النفس الطويل . لقد كنتُ قَرِما إلى هذا النوع من الكلام » ففرغ نفسك لرسمه في جزء ، لأنظر فيه ، وأشرب النفس حلاوته »[4] .

---

(١) تاريخ الحكماء للزوزنى مختصر كتاب أخبار الحكماء للقفطى ٢٨٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٤ — ٢٥ ، ٤٩ (٣) الإمتاع ١/ ٧٠

(٤) الإمتاع ١/ ٩٥

وكان يختم بعض الليالى بقوله : هات ملحة الوداع[1] .

ولم يكن ابن سعدان يكتفى بالسماع ، بل كان أحيانا يعلق برأيه ، ويناقش ، ويُفَنِّد[2] .

وأبو حيان فى إجاباته يسند كل خبر أو رأى لصاحبه .

فقد نقل عن أرسطو عن كتابه (السماء والعالم) وسماه الحكيم[3] . ونقل عن الأصمعى[4] . وعن على بن أبى طالب[5] وعن عمر بن الخطاب[6] وعن إبراهيم السندى[7] وعن إبراهيم بن الجنيد[8] وعن الأعمش[9] وعن أنس ابن مالك[10] وعن مالك بن عمارة اللخمى[11] وعن ابن الكلبى[12] وعن أبى سليمان المنطقى[13] . وعن أبى الحسن العامرى[14] .

واستشهد بأحاديث كثيرة[15] .

وعقب على الليلة السابعة عشره (عدد صفحاتها ٤٨ صفحة) بنتف شتى (٢٤ صفحة) ذكر فيها طرفا وآراء للنبى صلى الله عليه وسلم وابن المقفع وكسرى أبو شروان وأبى سليمان وعمر بن الخطاب ، وتكلم عن الدية عند العرب ، ومثل بشعر ، وذكر كلاما لديوجين والإسكندر وسقراط وأنكساغوراس وأفلاطون وسقراط وأبى زيد البلخى ومسكويه وأبقراط[16] :

وبدأ الليلة الثامنة عشرة بمجون فيه إفحاش ، نثرى وشعرى من محفوظه ، وفيه فكاهات لا إفحاش فيها ، لكن لا يجمعها رابط موضوعى[17] .

---

(١) الإمتاع ١/٧٠ (٢) ٢/٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ (٣) ٢/٨٧
(٤) ٢/٦٣ (٥) ٢/٦٣ (٦) ٢/٦٦
(٧) ٢/٦٦ (٨) ٢/٦٨ (٩) ٢/٦٩
(١٠) ٢/٦٩ (١١) ٢/٧٠ (١٢) ٢/٧٤
(١٣) ٢/٨٢ ، ١٣٢ (١٤) ٢/٨٤ (١٥) ٢/٩٢ — ١٠٣
(١٦) الإمتاع والمؤانسة ٢/٢ (١٧) ٢/٥٠

وفى إحدى لياليه وصف الوزير برقة القلب ،وشدة التوقّى ، وكثرة الصوم، لأنه دمع حينما سمع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ غريبا ، فطوبىَ للغرباء من أمتى » وسمع شرح الحديث .

ثم طالبه الوزير بجمع جزء من رقائق الصُّبّاد وكلامهم اللطيف الحلو، ومواعظهم الرادعة ، ففعل ، وكتب ورقات فى حديث النُّسَّاك[1] .

وعاد إلى مواعظهم ثانيا[2] .

ومرة طلب منه الوزير ابن سعدان كلمات بوارع ، قصارا جوامع ، فكتب إليه أشياء كان قد سمعها من أفواه أهل العلم والأدب ، على الأيام فى السَّفر والحضر[3] .

موضوعاته

ليس للكتاب موضوع واحد يَنْسُقه فى فكرة أو حَولَ فكرة ، وإنما هو أفانين من المعرفة والثقافة ، لا يربطها رابط موضوعى . هو ضرب رفيع من الحديث والمسامرة ؛ لأنه إجابات عن أسئلة شتى ،كان يمدها ابن سعدان فى نفسه، أوكان يلقيها عفو الخاطر .

وهذه نماذج لرءوس موضوعات منه :

لماذا يكون الغناء ألذ وأطيب ، وأحلى وأعذب ، إذا ساند المغنى مغن آخر[4]؟

كلام فى وصف الفيلة وبعض الحيوانات ومواطنها وطباعها[5]

كلام فى النبات والمعادن[6] .

الفرق بين الروح والنفس فى رأى العرب[7] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/٨٠ (٢) الإمتاع ٢/١١٩ — ١٢٠

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦١ (٤) الإمتاع والمؤانسة ٢/٨٢

(٥) ٢/١٠٤ (٦) ٢/١٠٧ (٧) ٢/١١٣

الفرق بين النظم والنثر ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأدخل فى الصناعة ، وأولى بالبراعة ؟ [١] .

حقيقة الاتفاق والمصادفة [٢] .

حقيقة اليُمْنْ والبركة والفأل والطيرة وأضدادها [٣] .

طرب الذين سمعوا غناء ، وأسماء المغنين والمغنيات والشعر الذى تغنوا به [٤] .

تفسير قوله تعالى : هو الأول والآخر والظاهر والباطن [٥] .

الفرق بين القبص والقبض : هل يجمع الإلّ ؟ (بمعنى العهد) ما معنى آم الرجل ؟ [٦] كلمة سراويل تذكر أم تؤنث ؟ وتصرف أم لا ؟ [٧] ما واحد المناخيب والمناجيب ؟ [٨] مامعنى امرأة عروب [٩] . وغيرها من مسائل اللغة ؟

المفاضلة بين الحساب والبلاغة والإنشاء والتحرير ، وانتصاره للبلاغة على الحساب [١٠] .

الأخلاق [١١] .

الحيوان وغرائبه [١٢] .

المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس فى المنطق اليونانى والبيان والنحو العربى ، فى مجلس ابن الفرات [١٣] . مؤلفو إخوان الصفا ، وكلام عن مذهبهم ورسائلهم [١٤] أنواع الدواوين فى عصره [١٥] .

---

(١) ٢/١٣٠ (٢) ٢/١٥٣ (٣) ٢/١٦١
(٤) ٢/١٦٥ — ١٨٣ (٥) ٢/١٩٠ (٦) ٢/١٩٣
(٧) ٢/١٩٦ (٨) ٢/١٩٧ (٩) ٢/١٩٧
(١٠) ١/٩٦ — ١٠٤ (١١) ١/١٤٣ — ١٥٧
(١٢) ١/١٥٩ — ١٩٧ (١٣) ١/١٠٨ — ١٢٨
(١٤) ٢/٤ (١٥) ١/٩٨

جهد أبي حيان في هذا الكتاب

أكثر جهده معتمد على الإدلاء بما يحفظه أو ينقله ، بعباراته هو في الغالب .

وأقل من هذا اعتماده على آرائه الخاصة .

فمن اعتماده على محفوظه هذان المثالان :

(ا) سأله الوزير أن يفرق بين النظم والنثر ، ويبين أيهما أجمع للفائدة وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة . فأجاب في تفضيل النثر إجابة نقلها عن شيخه أبي سليمان وأبي عابد الكرخي وعن عيسى الوزير وعن ابن طرّارة وعن أحمد ابن محمد كاتب ركن الدولة وعن ابن هندُو الكاتب وعن ابن كعب الأنصاري ، ونقل تفضيل الشعر عن السلاميّ وابن نباته والخالع والأنصاري[١] .

ولم يُدل برأي خاص في موضوع أدبي كهذا هو من اختصاصه .

(ب) قال له ابن سعدان : ما تحفَظُ في تَفعال وتِفعال ، فقد اشتبها ؟ وفزعتُ إلى ابن عُبَيد الكاتب فلم يكن عنده مَقنَع ، وألقيتُ على مسكويه فلم يكن له فيها مطلع ، وهذا دليل على دثور الأدب ، وبَوَار العلم ، والإعراض عن الكَدْح في طلبه .

فقلت : قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام — نضّر الله وجهه — : المصادر كلها على تَفعال بفتح التاء . وإنما تجيء تِفعال في الأسماء ، وليس بالكثير . قال : وذكر بعض أهل اللغة منها ستة عشر إسما لا يوجد غيرها . قال : هاتها .

قلت : منها التّبيان والتّلقاء ، وتِمساح ، وتمثال الخ[٢] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٣٠

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٢

ومن آرائه الخاصة هذا المثال :

سأله ابن سعدان : أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟

فأجاب بما نسبه إلى ابن المقنع في تفضيل العرب على الفرس والروم والصين والهند والزنج .

لكن ابن سعدان طلب رأيه فأراد أن يتنصل ، فضيق عليه ، فأجاب بأن لكل أمة فضائل ورذائل ، وشرع يعدد فضائل الفرس والروم والهند والترك والزنج والعرب ، على أنها ليست فضائل لكل فرد منها ، بل هي شائعة بينها ، وفي كل أمة من هذه الأمم كثير لا يتحلون بها .

وتنبه إلى فكرة لها قيمتها في الحكم على الأمم ، وهي أن لكل أمة من الأمم زمنا تغلب فيه وتسمو ، كما كانت يونان أيام الإسكندر ، وفارس أيام كسرى أنو شروان ، والأمة في زمان قوتها وسيطرتها تكون أفضل ، فإذا غلبها غيرها صار هو الأفضل ... [1] لكنه عاد ففضل العرب على الفرس وعلى الهند ، ورد على الشعوبية في قوة وتدفق وبراعة بيان[2] .

نماذج من الإمتاع والمؤانسة

— ١ —

فقرات من الليلة الثامنة

قال : صل حديثك عن هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء ، صف لي جماعتهم ، واذكر لي بضاعتهم .

---

(١) الإمتاع ١/٧٠ — ٧٦

(٢) ١/٧٦ — ٩٦

قلت : لست من الشعر والشعراء فى شىء ، وأكره أن أخطو على دَحض — مزلة — وأحتسى غير محض .

قال : دع هذا القول ، فما خضنا فى شىء إلى هذا الوقت إلا على غاية ما كان فى النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس . فكان من الوصف : أما السَّلاَمى[1] فهو حلو الكلام ، مُقتّسق النظام ، كأنما يَبسم عن ثغر ألغمام . خفىّ السرقة ، لطيف المأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه لَيْطة[2] بالقلب ، وعبث بالروح ، وبَرْد على الكبد .

وأما الحاتمىّ[3] فغليظ اللفظ ، كثير العُقَد ، يحب أن يكون بدويا قُحاً وهو لم يَتمّ حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر ، على تشابه بينهما فى الجفوة ، وقلة السلاسة ، والبعد من المسلوك . بادى العورة فيما يقول ، لكأنما يبرز ما يُخفى ، ويكدر ما يُصفّى . له سَكْرة فى القول إذا أفاق منها خُمِر[4] وإذا خُمِر سَدِر[5] ، يتطاول شاخصا ويتضاءل متقاعسا ، إذا صَدَق فهو مَهين ، وإذا كَذَب فهو مَشين .

وأما الخالع[6] فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى

---

(١) من أشعر أهل العراق ، عربى الأصل من بنى مخزوم . ولد بكرخ بغداد سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما . وروى صاحب اليتيمة من شعره . مات سنة ٣٩٤ هـ (٢) تعلق والتصاق

(٣) محمد بن الحسين الحاتمى ، مدح الخليفة القادر بالله ، وله الرسالة الحاتمية التى شرح فيها ماجرى بينه وبين المتنبى . مات سنة ٣٨٨ هـ

(٤) أصيب بالخمار وهو ألم فى الرأس وصداع يعقبان السكر ، والكلام هنا على طريق الاستعارة

(٥) تحير أو لم يبال ماصنع ولم يهتم

(٦) أبو على الحسن بن على الخالع شاعر من شعراء الوزير أبى نصر سابور بن أزدشير . له شعر فى اليتيمة

الطريقة ، متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتخيّر ، كان ذو الكفايتين يقدمه بالرّى ، و يقبله على النّشر والطّى .

وأما مسكويه [1] فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطىء السبك ، مشهور المعانى ، كثير التوانى ، شديد التوق ، ضعيف الترق ، يردُّ أكثر مما يصدُر ، ويتطاول جهدُه ثم يقصُر ، ويطير بعيدا ويقع قريبا ، وله بعد ذلك مآخذ كشَذْو من الفلسفة ، وتأتّ — تلطف — فى الخدمة ، وقيام برسوم النّدامة — المنادمة على الشراب — وسُنة فى البخل ، وغرائب من الكذب ، وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء .

وأما ابن نُباتة [2] فشاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند ، قد لحق عصابة سيف الدولة ، وعدّا معهم ووراءهم . حسَنُ الحذْو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم ، خفىّ المناص فى واديهم ، ظاهر الإطلال على ناديهم ، هذا مع شُعْبة من الجنون وطائف من الوسواس [3] .

— ٢ —

اللية السادسة عشرة [4]

ثم عدت وقتا آخر فقال : كنتَ حكيتَ لى أن العامرىّ صنّف كتابا عنونه

---

(١) أبو على أحمد بن محمد مسكويه . كان متفلسفاً مؤرخاً . وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم على خزانة كتب عضد الدولة . ثم اختص ببهاء الدولة البويهى وعظم عنده ، مات ٤٢١ هـ

(٢) ابن نباتة السعدى . عبد العزيز بن محمد بن نباتة . من شعراء سيف الدولة ابن حمدان . واتصل بابن العميد ومدحه . ولد سنة ٣٢٧ ومات سنة ٤٠٥ هـ

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/١٣٤ — ١٤٣

(٤) ١/٢٢٢

(بإنقاد البشر من الجَبْر والقَدَر) فكيف هذا الكتاب ؟ فقلت : هذا الكتاب رأيته بخطه عند صديقنا وتلميذه أبي القاسم الكاتب ، ولم أقرأه على العامرىّ . ولكن سمعت أبا حاتم الرازى يقرؤه عليه ، وهو كتاب نفيس ، وطريقة الرجل قوية . ولكنه ما أنقذ البشَر من الجبر والقدر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما .

قال : لم قيل الجبر والقدَرَ ، ولم يُقَل الإجبار ؟

فكان الجواب أن الإجبار لغة قوم ، والجبر لغة تميم . يقال : جبر الله الخلق وأجبر الخلق . وجبر بمعنى جَبَل ، واللام تعاقب الراء كثيرا .

قال : فتكلم فى هذا الباب بشىء يكون غير ماقاله العامرى ، وانقُدْ له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه .

فكان من الجواب : أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواتى من معدن الإلهيات أقر بالجبر ، وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتصرف والتصريف ، لأن هذه — وإن كانت ناشئة من ناحية البشر — فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى تنسب إلى الله الحق ، فهذا هذا .

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المحدثين اللائمين الملومين المكلّفين ، فإنه يُعَلّقها بهم ، ويلصقها برقابهم ، ويرى أن أحدا ما أُتى إلا من قِبَل نفسه ، وبسوء اختياره ، وبشدة تقصيره ، وإيثار شقائه .

والملحوظان صحيحان ، والملاحظان مصيبان . لكن الاختلاف لا يرتفع

بهذا القول والوصف ، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية ، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية .

فلما وقعت البينونة بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القال والقيل من ناحية القول والصّفة ، فهذا هذا .

قال — أطال الله بقاءه — فما الفرق بين القضاء والقدر ؟

فكان من الجواب أن أبا سليمان قال : إن القضاء مصدره من العلم السابق ، والقدر مَوْرِده بالأجزاء الحادثة .

فقال : لم ورد فى الأثر : « لا تخوضوا فى القدر فإنه سر الله الأكبر » ؟

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال لنا فى هذه الأيام : إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عام ، ليكون النفع به شائعا فى سكون النفس وطيب القلب ورَوْح الصدر .

فإن كان هذا هكذا فقد وضح أن حكمة هذا السر طيّه ، لأن عجز الناظرين يُفْضِى بهم إلى الحيرة ، والحيرة مَضَلّة ، والمضلة مَهْلَكة .

وإذا كانت الراحة فى الجهل بالشىء ، كان التعب فى العلم بالشىء ، وكم علم لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا . وكم جهل لو ارتفع منا لكان فيه هلاكنا . والعلم والجهل مقسومان بيننا ، ومفضوضان علينا على قدر احتمال كل واحد منا للذى سَبَق إليه وعَلِق به . ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون ، وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة أو البلاء ، لكان ذلك مفسدة لنا ، ومحنة شديدة علينا ؟ .

فانظر كيف زَوَى الله الحكيم هذا العلم عنا ، وجعل الخيرة فيه لنا .

ألا ترى أيضا أن جهلنا لو غَلَب علينا فى جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك فى عظم الفساد الأول ، والبلاء منه فى معرض البلاء المتقدم ، فمن هذا الذى أشرف على هذا الغيب المكنون ، والسر المخزون ، فيَنْفُل عن الشكر الخالص ، والاستسلام الحسن ، والبراءة من كل حول وقوة ؟ فالاستمداد ممن له الخَلْق والأمر ، أعنى الإبداع والتكليف ، والإظهار والتشريف ، والتقدير والتصريف .

قال : هذا فنّ حسن …

قال : إن الليل قد دنا من فجره ، فهات مُلحه الوداع :

قلت : قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق) : دخل أعرابى الحمام ، فزلق ، فانشجّ ، فأنشأ يقول :

وقالوا تَطَهَّرْ إنه يوم جمعة   فرحتُ من الحمام غيرَ مُطَهَّرِ

تَرَدَّيْتُ منه شاريا شَجَّ مَفرِق   بفَلْسَيْنِ إنى بئس ما كان مَتْجَرى

وما يُحْسِنُ الأعراب فى السوق مِشْيَةً

فكيف ببيت من رَخام ومرمر ؟

يقول لى الأنباط إذ أنا نازل   « به لا بظبى بالصريمة أعفر[1] »

فقال — حرس الله نفسه — كنت أروى قافية هذا البيت (أعفرا) وهذه فائدة كنت عنها فى ناحية .

---

(١) هذا مثل يضرب فى الشماتة بالرجل . يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظبى أعفر ، كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضل عليه الظبى الأعفر

— ٣ —

فقرات من الليلة السابعة عشرة

قال حُذَيفة : كن فى الفتنة كابن اللّبون ، لا ظَهْرَ فيركب ، ولا لبنَ فيحلب .

قال ديوجانس : إن المرأة تَتَلقَّن الشر من المرأة ، كما أن الأفعى تأخذ السُّمَّ من الأرِصلة .

وقال فيثاغورس : ان كثيرا من الناس يرون العمى الذى يَعْرِض لعين البدن فتأباه نفوسهم . فأما عمى عَيْنِ النفس فإنهم لا يرونه ولا تأباه نفوسهم ، فلذلك لا يستحيون .

وقال أيضا : كما أن الذى يسلك طريقا لا يعرفه لا يدرى إلى أى موضع يؤديه ، كذلك الذى يسمع كلاما لا يعرف الغرض فيه لا يربح منه إلا التعب .

قيل له : متى تطيب الدنيا ؟ قال : إذا تفلسف ملوكها ، ومَلَكَ فلاسفتها .

فقال الوزير — أسعده الله — عندى أن هذا الكلام مدخول ، لأن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا ، وفرّغ نفسه للدار الآخرة ، فكيف يكون الملك رافضا للدنيا وقاليا لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفى مفاسدها ، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم ، وإقامة أبنيتهم ، والتوسعة عليهم وعلى ماكلهم ومشاربهم ومداراتهم والإشراف على سرهم وعلانيتهم ؟ والملك أتعب

من الطبيب الذى يجمع معالجة كثيرة بضروب الأدوية المختلفة والأغذية المتباينة.
هذا والطبيب فقير إلى تقديم النظر فى نفسه وبدنه ، ونفى الأمراض والأغراض عن ظاهره وباطنه . ومن كان هكذا ومن هو أكثر منه وأشد حاجة وعلامة كيف يستطيع أن يكون ملكا وحكيما ؟ ولعل قائلا يظن هذا ممكنا أو يكون الملك واعيا فى الحكمة بالدعوى ، وقائما بالملك على طريق الأولى ، وهذا إلى التياث الأمر واختلاله واختلاطه فى الملك والفلسفة أقرب منه إلى إحكام الأصل وإثبات الفرع . ولهذا لم نجد نحن فى الإسلام من نظر فى أمر الأمة على الزهد والتقى وإيثار البر والهدى إلا عدداً قليلا .

والمجوس تزعم أن الشريعة مُعَرَّجة عن المُلك ، أى الذى يأتى بها ليس له أن يُعَرِّج على المُلك ، بل له أن يكل الملك إلى من يقوم به على أحكام الدِّين . ولهذا قال ملكنا الفاضل : الدين والملك أخوان ، فالدين أس ، والمُلك حارس ، فما لا أسَّ له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فهو ضائع .

فقلت له : هذا باب إن توزع القولُ فيه طال ، وإن رُمى بالقصد جاز ، وللأئمة كلام كثير فى الإمامة والخلافة ، وما يجرى مجرى النيابة عن صاحب الديانة على فنون مختلفة وجمل متعددة . إلا أن الناظر فى أحوال الناس ينبغى أن يكون قائما بأحكام الشريعة ، حاملا للصغير والكبير ، على طرائقها المعروفة ، لأن الشريعة سياسة الله فى الخلق ، والملك سياسة الناس للناس . على أن الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة ، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة . والمَلك مبعوث ، كما أن صاحب الدين مبعوث ، إلا أن أحد البعثين

أخفى من الآخر ، والثانى أشهر من الأول .

قال — أطال الله بقاءه — كنت أحب أن أعلم من أين قلت :
إن الملك مبعوث أيضا ؟ فإن هذه الكلمة ما ثبتت فى أذنى قط ، ولا
خطرت لى على بال .

قلت : قال الله عز وجل فى تنزيله : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا »
فعجب وقال : كأنى لم أسمع بهذا قط[1] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/٣١ — ٣٣

الصداقة والصديق

لمن ألفه :

ذكر فى المقدمة أنه كان قد ذكر طرفا من هذا الكتاب على مسمع زيد ابن رفاعة ، فنقله إلى ابن سعدان ، فطلب منه أن يدونه . وكان ذلك سنة ٣٧١ ﻫ قبل أن يتحمل أبو عبد الله ابن سعدان أعباء الدولة ، ويتولى الوزارة .

لكن ابن سعدان شغل بالحكم والسياسة ، فنسى أن يذكر أبا حيان بكتابه هذا ، إلى أن عُزل وقُتل .

وبعد ذلك بسنين كما يقول أبو حيان ، أو على التحديد سنة ٤٠٠ ﻫ كما يقول ياقوت (١) ، عثر على مسوّدة الكتاب فبيّضه (٢) .

طريقته :

١ — ينبىء تصفح الرسالة عن نقل متصل متنوع ، من حكمة ، وشعر ، ونثر ، وحديث ، وأخبار وأحداث .

ويظهر من الرسالة أن أبا حيان اعتمد أولا على الجمع ، ثم على رأيه ، وحتى هو فى جمعه لم يبوب ولم يرتب .

لهذا نعجب من قوله فى المقدمة : « سمع منى فى وقت بمدينة السلام كلام فى الصداقة والعشرة ، والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة ...

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٧ (٢) الصداقة والصديق ٦

وسئلت إثباته ، ففعلت • ووصلت ذلك بجملة ما قال أهل الفضل والحكمة ، وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة ، يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها فى المعاش والمعاد » [1] .

والذى يقرأ هذا النص يحسب أن أبا حيان له آراء خاصة كثيرة فى الرسالة، بل يخيل إليه أن جهده الإنشائى فيها أكثر من نقله ، فإذا ماتصفح الرسالة وجد أكثرها نقولا .

فكيف ذكر أبو حيان ذلك .

إما أن يكون غرضه من قوله « سمع منى كلام فى الصداقة » أنه أسمع الناس من محفوظه ، ثم زاد عليه من محفوظه أيضا حينما أثبت الرسالة •

وإما أن يكون قد كتب المقدمة بعد أن كتب الرسالة بتسعة وعشرين عاما ، لأنه كتب الرسالة كما قال سنة ٣٧١ ثم عاد فبيضها سنة ٤٠٠ كما ذكر ياقوت ، أو ببعض سنين كما ذكر هو ، وربما كان هذا الزمن الطويل قد أنساه أنه اعتمد على النقل أكثر ، وظن أن له فى الرسالة جهداً أكبر •

وإن كنت أستبعد هذا الفرض ، لأنه إذا كان قد نسى ، فإنه يتذكر حينما يبيض .

٢ — الموضوع العام واحد، وليس أشتاتا كما فى الإمتاع والمؤانسة ، أو المقابسات ، أو الهوامل والشوامل •

لكن أبا حيان لم يبوبه ، ولم يقسمه أى تقسيم ، وإنما حشد كل مايتصل بالصداقة والصديق حشدا لاتنتظمه وحدة أو فكرة .

---

(١) الصداقة والصديق ١

٣ — وأحيانا يستقل برأيه ، كما فعل فى تفسيره لمثى (إذا عز أخاك فَهُن) فقد ذكر التفسير الخاطىء ، وعقب عليه بتصحيح أحد الخالديّين له ، وعلق هو على هذا التصحيح والتفسير [١] .

٤ — فرّق بين دلالات دقيقة ، كتفريقه بين الصداقة والملاقة [٢] .

وعلل لمسائل عويصة ، كتعليله لكثرة التنافس وشدة العداوة بين ذوى القربى أكثر مما بين الأباعد والأجانب [٣] .

وهو هنا يتأثر الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود مع بعض فروق .

وكتعليله لحنين الإنسان إلى والده ووالدته وأخته وابن عمه وبنت عمه وعشيقه وصديقه ، وإيثار الصدق على هؤلاء جميعا [٤] .

٥ — أكثر من الاستشهاد بالشعر القديم والمولد ، منسوبا إلى قائليه فى الأعم الأكثر . فلا تخلو صفحة من أبيات .

وأحيانا تتوالى صفحات كلها شعر [٥] .

وكثيراً ما يستشهد بشعر مشهور فلا يسمى قائليه [٦] .

٦ — نقل حكما كثيرة عن اليونان مثل ديوجانوس وثيمانوس وانكساغوراس وأفلاطون وأرسطو وسقراط [٧] .

٧ — روى عن كثير من العلماء والأدباء ، من عرب وفرس ، ومسلمين ونصارى .

---

(١) ٢٣ (٢) ٤٠٤ (٣) ٥٩

(٤) ٦٧ (٥) ٦٠ — ٦٢ ، ٨١ — ٨٥

(٦) ٥٢ ، ٥٣ (٧) ٢٨ ، ٦٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٣

من الذين نقل عنهم : الجاحظ (١) وابن المقفع (٢) وابن المعتز (٣) وسهل ابن هارون (٤) ومحمد بن عبد الملك الزيات (٥) وأبي سعيد السيرافي (٦) .

ومنهم : أبو الحسن علي بن عيسى (٧) والطبراني (٨) وأبو عثمان أحد الخالديين (٩) والقاضي أبو حامد (١٠) والأندلسي (١١) والعروضي (١٢) وأبو سليمان (١٣) وأبو السائب القاضي (١٤) وعلي بن القاسم الكاتب (١٥) وأحمد بن محمد الكاتب (١٦) والمرزباني (١٧) وابن مانويه القمي (١٨) وجعفر بن حنظلة (١٩) وابن الجمل الكاتب النصراني (٢٠) والهائم أبو علي (٢١) والبشوي (٢٢) وأبو عامر النجدي (٢٣) وأبو حامد العلوي (٢٤) . ويذكر أحاديث عدة عن الرسول ﷺ .

٨ — يظهر أن أبا حيان لم يكن قد قدّر للرسالة أن تطول إلى هذا الحد ، لأنه كان قد اعتزم على إنهائها .

ذلك أنه أشار إلى أن الرسالة توشك أن تنتهي ، وأنه سيختمها ببعض النوادر والأبيات ، لأنها إذا طالت أبغضت ، وإذا أبغضت هجرت (٢٥) .

لكنه لم يختمها إلا بعد ١١٩ صفحة من هذا الوعد . (٢٦)

---

(١) ١٢ (٢) ١٧ ، ١٩ (٣) ٧٠
(٤) ٧٣ (٥) ٧٣ (٦) ٨
(٧) ١١ ، ٢٩ (٨) ١٣ (٩) ٢٣
(١٠) ٣٧ (١١) ٣٧ (١٢) ٤١
(١٣) ٤٣ ، ٥٩ (١٤) ٤٦ ، ٧٥ (١٥) ٧٤
(١٦) ٤٩ (١٧) ٧٦ (١٨) ٨٥
(١٩) ١٢٣ (٢٠) ٦٤ (٢١) ٦٥
(٢٢) ٦٥ (٢٣) ٦٥ (٢٤) ٦٧
(٢٥) ٨٠ (٢٦) ختمها في صفحة ١٩٩

فهل اجتذبه المقال إلى الاستمرار ؟

أو أنّ هذا القدر الكبير قد كان من إضافته حينما بيض الرسالة فيما بعد ؟

لعل الاحتمال الثانى هو الصواب ، لأننا عرفنا من حديثه أنه أهمل الرسالة مدة طويلة ، ثم بيضها .

قيمتها :

للرسالة عدة قيم :

١ — جمعت ألوانا شتى من الحكم المتصلة بالصداقة والوفاء والغدر والخلاف ، من شعر ونثر ، بعضه منسوب إلى قائليه وبعضه غفل ، وبعضه عربى وبعضه غير عربى مما ترجم .

٢ — ألبس أبو حيان بعض المعاني التى جمعها أسلوبه الخاص ، وبهذا يعد بعضها صالحا لاستنباط خصائصه الأسلوبية .

٣ — فى الرسالة نصوص شعرية ونثرية ندر أن توجد فى غيرها ، كالرسائل القصار المتبادلة بين الأصدقاء . لهذا تعد ذخيرة حفظت بعض الشعر والرسائل من الضياع .

٤ — وفيها تفريق دقيق بين بعض الكلمات التى يوهم استعمالها أنها مترادفة .

نماذج من الصداقة والصديق

— ١ —

سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكى : قال العَتّابى : لا أحب رجلا نقل إلىّ ما كرهتُ عن صديق فنيرّنى له ، ولا عن عدو لحملنى على طلب الانتصار منه ، ومع ذلك فلم يستحى بأن واجهنى بما ساءنى سماعه .

أما قوله :

قد كنت أبكى على مافات من سلفى وأهلُ ودى جميعا غيرُ أشتات
فاليوم إذ فرّقت بينى وبينهم نوًى بكيت على أهل المودّات

فليس مما نحن فيه ، لأن الكلام فى الصداقة على كرم العهد ، وبذل المال ، وتقديم الوفاء ، وحفظ الذّمام ، وإخلاص المودة ، ورعاية الغيب ، وتوفر الشهادة ، ورفض الموحدة ، وكظم الغيظ ، واستعمال الحلم ، ومجانبة الخلاف ، واحتمال الكلّ ، وبذل المعونة ، وحمل المئونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، وحسن الاستنامة ، والثبات على الثقة ، والصبر على الضراء ، والمشاركة فى البأساء ، والملاقة وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئا ، فليس ذلك لأنه من عَتادها وأساسها ، ولا مما لا تتم إلا به ، ولكن من أجل التحسن والتزين .

وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلام قَصْدٍ قريب سليم مقبول ، ولسنا نتعقبه بنقص ، ولا نقدح فيه باعتراض ، لأن العاشق والمعشوق ليسا من الصديق والصديق وإن كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق ، ويتلاقون فى بعض الأحوال ، فليكن هذا الرسم كافياً محفوظا ، فإن المغالطة قد تقع فى هذا كثيرا ، والإنصاف يقوم عليه دائما [1] .

---

(١) ٤٩

— ٢ —

قلت لابن الأبْهَرِى : من الصديق ؟ قال : من سَلَّم سره لك ، وزَيَّن ظاهره بك ، وبذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يدك عند حاجته . يراك منصفا وإن كنتَ جائرا ، ومُفْضِلا وإن كنتَ ممانعا . رضاه منوط برضاك ، وهواه محوط بهواك . إن ضللت هواك ، وإن ظلمت أرواك ، وإن عجزت آداك (أعانك وتواك) . يبين عنك بالجسم والرسم ، ويشاركك فى القَسْم والوَسْم .

قلت : أما الوصف فحسن ، وأما الموصوف فعزيز .

فقال : إنما عزّ هذا فى زمانك ، حين خبثت الأعراق ، وفسدت الأخلاق ، واستعمل النفاق فى الوفاق ، وخيف الهلاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، إذا لحظهم بطرفه تهللوا ، وإذا ناقلهم بلفظه تدللوا ، وإذا تحكم عليهم تمجلوا ، وإذا أمسك عنهم توّلوا وخوّلوا .

وكانوا يجدون به مالا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ، فقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، وإنى لأذكرهم فأجد فى رُوحى رَوْحا من حديثهم »[1]

(١) الصداقة والصديق ١٢٤

— ٣ —

قال سفيان بن عيينة : صحبت الناس خمسين سنة ، ماسترلى أحد عورة ، ولا رَدَّ عنى غَيْبة ، ولا عفالى عن مظلمة ، ولا قطعته فوصلنى . وأخصُّ إخوانى لو خالفته فى رُمَّانة ، فقلت هى حامضـــة وقال هى حلوة ، لسعى بى حتى يَشيط بدمى .

وقال أعرابى فى صاحب له : فلان أفصح خلق الله كلاما إذا حَدَّث ، وأحسنهم استماعا إذا حُدِّث ، وأكفّهم عن الملاحاة إذا خولف ، يعطى صديقه النافلة ، ولا يسأله الفريضة ، له نَفْسٌ عن العوراء محصورة ، وعلى المعالى مقصورة ، كالذهب الإبريز الذى يَعِزُّ كلَّ أوان ، والشمس التى لا تخفى بكل مكان ، هو النجم المضىء للجيران ، والبارد العذب للعطشان .

كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسى يدعوه إلى الأرض المقدسة ، فكتب إليه سلمان : إن بعدت الدار من الدار ، فإن الروح مع الروح قريب ، وطائر السماء على إلفه من الأرض يقع .

قال معبد بن مسلم :

جزى الله الموالى عن أخيهم	وكل صحابة لهُمُ جزاء
بما فعلوه إن خــيرا فخيرا	وإن شرا كما امتثل الحذاء
فما أنصفتم والنِّصْف يُرْضَى	به الإسلام والرحم البَواء
لزدتهم النصيحة من لَدُنِّى	فجثُّوا النصح ثم تَنَوْا فقاءوا
وقلت : فدًى لكم عمى وخالى	فما قبل التودد والفداء

فكيف بهم وإن أحسنتُ قالوا أسأتَ وإن غفرتُ لهم أساءوا

قال لنا المرزبانى : حدثنا القراطيسى ، قال : أنبأنا أبو العيناء ، قال : نشدنا السدرى :

وإنى لأهوى ثم لا أتبَعُ الهوى وأكرم خِلاَّنى علىَّ صَدُودُ

وفى الناس عن بعض التضرع غلظة وفى العين عن بعض البكاء جمود

قال أبو العيناء : قلت لأعرابى : كيف أنت ؟ قال : كما يسرك إن كنت صديقا ، وكما يسوءك إن كنت عدوا .

وكتب ابن ثوابة إلى صديق له : ما انفككت عن ودك ، ولا افركت عن عهدك .

قال شاعر :

إذا كثر التجنى من خليل بلا ذنب فقد مَلَّ الخليل

كتب الحسن بن وهب إلى صديق له ، يعلمه صبابته إليه ، ووحشته لفراقه ، فقال : وقد قسمك الله بين طرفى وقلبى ، فى مشهدك أُنس قلبى ، وفى عينيك لَهْوُ طرفى .

فأجابه الصديق : وقفت على الفضل الذى أخبرت فيه بما أخبرت ، فسيان عليك رأيتنى أم لم ترنى، إذا كان بعضك يؤنس بعضا ، فتسلو عنى . ولكنى أراك فيخشع قلبى ، وأغيب عنك فتدمع عينى ، فسيان بين من سلا آبدَه ، ومن حزن أَمَده[1] .

---

(١) ١٥٦

مثالب الوزيرين (*)

أسلفت فى صلة أبى حيان بابن العميد وابن عباد أنه لم ينل منهما ما كان يأمل ، فهجاهما فى هذا الكتاب .

وبينت أن ابن العميد المقصود هو أبو الفتح ابن أبى الفضل ابن العميد ، وليس أبا الفضل المعروف بالأستاذ وبالرئيس وبذى الرياستين هو المقصود .

وعرّفتُ فيما سبق بأبى الفتح ابن العميد وبالصاحب بن عباد .

موضوع الكتاب :

١ — يتبين من القدر الذى نقله ياقوت من الكتاب — وهو غير قليل — أن القسم الخاص بالصاحب أكبر من القسم الخاص بابن العميد ، وأن الحنَقَ على الصاحب أشد من السخط على أبى الفتح .

ولا عجب فى هذا ، فإننا لم نعرف الزمن الذى قضاه عند أبى الفتح ، ولم نعلم مقدار أمله فيه ، ولذع حرمانه منه .

لكنا عرفنا منه أنه قضى زمنا أطول عند ابن عباد ، وأنه خدمه ، وأمّل فيه أملا عظيما ، غير أن أمله كان هباء ، فعاد من عنده حانقا أشد الحنق ، لايستطيع أن يكتم شيئا من حنقه فى نفسه .

قال أبو حيان :

(*) يسميه ياقوت بذلك ، ويسميه أخلاق الوزيرين ويسميه ثلب الوزيرين وكتاب الوزيرين ، وسماه مرة كتاب الهفوات لابن الصابىء (يريد ابن عباد) معجم الأدباء ١٥

ما ذنبي أن ذكرت عنه ما جرَّ عنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملني عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظن الحسن . حتى كأنى خُصِصْت بخساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى[1] .

٢ — وهو فى تناوله للصاحب يعتدل حينا ، ويتوسط حينا ، ويسف حينا . فمن اعتداله قوله :

كان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ .

وكان الصواب غالبا عليه . وله رِفْقٌ فى سَرْدِ حديث ، ونيقة (تحسين وتوضيح) فى رواية ، وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الإشارة والعبارة . وهذا شيء عام فى البغداديين ، وكالخاص فى غيرهم[2] .

ومنه قوله :

« حضرتُ مائدة الصاحب بن عباد ، فقُدِّمَتْ مَضِيرة[3] ، فأمعنتُ فيها ، فقال لى : يا أبا حيان ، إنها تضرُّ بالمشايخ . فقلت : إنْ رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فَعَلَ . فكأنى ألقمته حَجَرا ، وخجل واستحيا ، ولم ينطق إلى أن فرغنا[4] .

وكذلك قوله :

« طلع ابن عباد علىَّ يوما فى داره وأنا قاعد فى كِسْرِ إيوان أكتب شيئا

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٣

(٢) معجم الأدباء ١٥/٤٤

(٣) المضيرة : مرقة باللبن المضير (الحامض) أو الحليب

(٤) معجم الأدباء ١٥/٧

قد كان كأدنى (كلفنى) به ، فلما أبصرته قمتُ قائما ، فصاح بحَلْقٍ مشقوق : اقعد ، فالوراقون أخسّ من أن يَقوموا لنا . فهممت بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر : اسكت فالرجل رقيع . فغلب علىّ الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه ، لأنه كان قد قال هذا وقد لوى شِدْقه ، وشَنَج أنفَه ، وأمال عنقه ، واعترض فى انتصابه ، وانتصب فى اعتراضه ، وخرج فى تفكّك مجنون قد أفلت من دَيْر مُجنون . والوصف لا يأتى على كُنه هذه الحال، لأن حقائقها لا تدرَك إلا باللحظ ، ولا يُؤتَى عليها باللفظ ، فهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرزانة ؛ لا والله ، وتَبًّا (خسرانا) لمن يقول غير هذا[1] » .

٣ — ومن توسطه قوله :

كان الصاحب كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، وقد نَتَفَ من كل أدب شيئا ، وأخذ من كل فن طرفا . والغالب عليه كلام المتكلمين والمعتزلة . وكتابته مُهَجَّنة بطرائقهم ومناظرتهم ، مَشوبة بعبارة الكتاب .

وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، والناظرين فى أجزائها ، كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد . وليس له من الجزء الإلهى خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر .

وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ، وليس بزَّال[2] . وبديهته غَزارة ، وأما رَوِيته فخوّارة . ولا يرجع إلى التأله والرقة والرأفة

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٢٦

(٢) ليس منحرفاً عن الصوب

والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه ، لجراءته وسلاطته ، واقتداره وبطشته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بَذِيُّ اللسان ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة — الرجوع عن غضبه — قريب الطِّيرة ، حسود حقود . . .

وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا . . ومع هذا يخدعه الصبي ، ويَخْلِبه الغبي ، لأن المَدْخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل[1] .

٤ — ومن إسفافه قوله :

« ثم نظر إلى غلام قد بقل وجهه[2] — كان يتهم به على الوجه الأقبح — فالتوى وتقلقل ، وقال : ادنُ منى يا بنى ، كيف كنت ؟ ولم حملت نفسك على هذا العناء ؟ وجهك هذا الحسن لا يُتَبَذَّل للشحوب ، ولا يُعرَّض للفحات الشمس بين الطلوع إلى الغروب . أنت تحب أن تكون بَدْلة[3] بين حَجَلة[4] وكِلّة[5] ، تزاح بك العلة ، وتُغْلَى بك القِلّة[6] ، وتُشْفَى منك الغُلّة[7] » .

ولكنا نستبعد هذا كله ، لأن أبا حيان ادعاه فى الأحاديث التى استقبل بها ابن عباد الناس الذين خفّوا لقائه لما رجع من همذان سنة ٣٦٩ ، وفيهم القاضى أبو الحسن الهمذانى والزعفرانى رئيس أصحاب الرأى وابن القطان القزوينى

(١) معجم الأدباء ٦/١٧٤
(٢) نبت شعر لحيته
(٣) البدلة : مجموعة متناسبة ، وأكثر استعمالها فى الملبوس
(٤) قبة وموضع يزين بالثياب ، وحجرة العروس
(٥) الستر الرقيق (٦) الشىء القليل
(٧) معجم الأدباء ٦ / ١٩٨

الحنفى العـــالم الظريف وأبو طالب العلوى الشريف وأبو خراسان الفقيه الشافعى[1] ، وهؤلاء ذكرهم أبو حيان نفسه فى المستقيلين ، فكيف يجهر أمامهم ابن عباد بما زعمه أبو حيان ؟

وحكى عن ابن عباد حكايات ، وأسندها إلى من أخبره بها .

ثم قال : فما ذنبى — أكرمك الله — إذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر ، فوصفوه بما جمعتُ لك فى هذا المكان . على أنى قد سترتُ شيئاً كثيرا من مخازيه ، إما هربا من الإطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبثّ الفضائح ، وذِكْر ما يَستشنع مسموعُه ، ويُبكره التحدث به ..

هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فإنى قد فارقته سنة سبعين وثلاثمائة[2] .

٥ — أما ابن العميد فقد سلم من تجريحه وإسفافه إلى الحد الذى أسفّ فيه بابن عباد ، لأننا لا نجد شيئاً من هذا فيما نقله ياقوت . وربما كان فى المفقود شىء منه .

فمن ثلبه لابن العميد أنه اتهمه بالبخل فى قوله : قصدت مع أبى زيد المرْوَزِىّ دار أبى الفتح ذى الكفايتين ، فمنعنا من الدخول عليه أشد منع ، وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب : أجلسنا فى الدّهليز إلى أن يفرغ من الأكل ، فلم يفعل .

فلما انصرفنا خزايا أنشأ يقول متمثلا :

على خبز إسماعيل واقيةُ البخل ... فقد حل فى دار الأمان من الأكل

---

(١) معجم الأدباء ٦/١٨٧ — ١٩٨

(٢) معجم الأدباء ١٥/٣٣

وما خبزه إلا كآوَى(١) يُرَى ابنُه
ولم يُرَ آوى فى الحُزون ولا السهل

وما خبزه إلا كعنقاءِ مُغْرِبٍ
تُصَوَّرُ فى بُسْط الملوك وفى المُثل

يُحَدِّث عنها الناسُ من غير رؤية
سوى صورةٍ ما إن تُمِرُّ(٢) ولا تُحْلِي(٢)

ولكنه ذكر فى الكتاب ما ينبىء عن كرم ابن العميد وسخائه ، وإن كان السخاء على غير أبى حيان .

من ذلك قوله :

جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء . قال لى مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق .

فقلت — بعدما أطال الحديث وتقطع بالأسف — : أيها الشيخ ، أسألك عن شىء واحد ، فاصْدُقْ فإنه لا مَدَبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وأضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أَرْبَى عليه ؟

---

(١) سمى ابن آوى بهذه الكنية من غير وجود لآوى . فإذا أردت التمثيل للمحاله قلت رأيت آوى أو عنقاء مغرب

(٢) يقال للرجل وللشىء الذى لاقيمة له إنه لايمر ولايحلى أى لامرارة فيه فتحس ولا حلاوة فتذاق (٣) معجم الأدباء ١٥/٩

فإن كان الذى تسمع على حقيقة ، فاعلم أن الذى يَرِدُ ورْدَ مقالك إنما هو الحسد ، أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدّعى الحكمة ، وتتكلف الأخلاق ، وتزيّف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على سرك وشرك[1] .

وقوله :

ودخل — أبو الفتح بن العميد — بغداد فتكلف ، واحتفل ، وعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما ، وللأدباء يوما ، وللمتكلمين يوما ، وللمتفلسفين يوما ، وفرق أموالا خطيرة ، وتفقد أبا سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وغيرهما ، وعرض عليهما المسير معه إلى الرى ، ووعدهم ومناهم ، وأظهر المباهاة بهم . وكذلك خاطب أبا الحسن ابن كعب الأنصارى وأبا سليمان السجستانى المنطقى وابن البقال الشاعر وابن الأعرج النمرى وغيرهم .

ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ ووصل ووهب ، فجرت فى هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصة ماجرى مع أبى الحسن العامرى . ولولا طول الرسالة لرسمتُ ذلك كله فى هذا الكتاب ... إلى أن يقول : وسمعت أبا إسحاق يقول : هو ابن أبيه لله دره ، وأخذ فى تعظيم أبيه »[1] .

٧ — ولعلنا أدنى إلى الصواب فى استنباطنا أن الكتاب ليس كله هجاء كما يفهم من اسمه . ففيه هجاء وفيه وصفٌ لأحوال الوزيرين ، وأخلاقهما ، وكفايتهما ، مع التحامل عليهما ، والجنوح إلى الغض من شأنهما ، وخاصة مع ابن عباد .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥١

(٢) معجم الأدباء ١٤/٢١٣ — ٢١٥

والذى يمهد لنا هذا الرأى أننا نجد فى البقايا التى نقلها ياقوت ذما ومدحا ، وثناء وقدحا .

كقوله :

كان عَبَّاد يُلَقَّب الأمين ، وكان دَيِّنا خَيِّرا ، مُقَدَّما فى صناعة الكتابة . وكتب الأمين لركن الدولة كما كتب العميد لصاحب خراسان . والأمين كان ينصر مذهب الأشنانى تَدَيُّنا ، وطلبا للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لعاجلته .

وإن قلتُ : كان الأمين معلما بقريَة من قرى طالَقان الدَّيلم قيل : وكان والد العميد نَخّالا فى سوق الحنطة بِقُمّ [١] .

ومثل قوله عند ما قارب الفراغ من كتابه هذا : ولولا أن هذين الرجلين — أعنى ابن عباد وابن العميد — كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث يُنْشَر الحسَنُ منهما نشرا ، والقبيح يُؤْثَر منهما أثْرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد .

ولكن النقص ممنَ يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة — داهية — والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يَدَّعى العصمة جائحة — شدة وبلوى — والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب .

ولو أردتَ — مع هذا كله — أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم ، إلى وقتك هذا المؤرَّخ فى الكتاب، لم تجد [٢] .

---

(١) معجم الأدباء ٦/١٧٠

(٢) معجم الأدباء ١٥/٢٣٢

البصائر والذخائر

معنى الاسم :

البصائر جمع بصيرة ، ومن معانيها فى اللغة : الفطنة ، والحجة ، والعبرة[1] وكل منها صالح هنا .

والذخائر جمع ذخيرة ، وهى ما ادّخر[2] .

فمعنى الكتاب إذاً : الفِطَنُ أو الحجج أو العبر ، والذّخر النافع المدّخر .

موضوعه :

الكتاب ألوان شتى من المعرفة ، ليس له منهج موضوعى ، ولا محور خاص يدور حوله ، ففيه مسائل من اللغة والتصوف والنوادر والتاريخ والشعر والحكم والفكاهة والمجون .

ذكر أنه يتضمن أمهات الحكم وكنوز الفوائد ، أولها وأجلها كتاب الله عز وجل ، وثانيها سنة رسوله ﷺ ، وثالثها حجة العقل ، ورابعها رأىُ العين ، هذا إلى أطراف من سياسة العجم ، وفلسفة اليونان[3] .

أى أنه يعتمد فيما يثبت على كتاب الله ، وعلى سنة رسوله ، وعلى عقله ومنطقه وتفكيره الخاص ، وعلى تجاربه ومشاهداته .

(١) أساس البلاغة والقاموس المحيط مادة بصر

(٢) القاموس مادة ذخر

(٣) البصائر والذخائر ٧ — ٩

طريقته :

١ — نثر المسائل نثرا ، لا يقتضيه ارتباط موضوعى ، ولا يستدعيه توارد الخواطر .

وقد أحس بذلك فقال : « إنما نثرت هذه القرائح على ما اتفق . وكان الرأى نظم كل شيء إلى شكله ، ورده إلى بابه ، ولكن منع منه ما أنا مدفوع إليه من التياث حالى وانبتات متنى ، والتواء مقصدى ، وفقد ما به يُتَمَسَّك الرَّمَق ، ويصان الوجه ، لاعوجاج الدهر ، واضطراب الحبل ، وإدبار الدنيا بأهلها ، وقرب الساعة إلينا »[1].

لهذا يشبه هذا الكتاب كتاب الصداقة والصديق ، فى أن متنه كله متلاحق متوال ، بغير عنوانات ولا رءوس موضوعات ، ولا إشارات إلى نهاية كلام فى موضوع آخر .

٢ — أودعه ما سمعه ورواه فى خمسة عشر عاما من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٥ هـ « مع توخى القصار دون الطوال ، والسمين دون الغث ، والرفيع دون السفساف ، والبديع دون المعتاد »[2].

لكننا سنجد فى الكتاب فحشا وإسفافا وأدبا عاريا مكشوفا .

٣ — روى فيه عن علماء مختلفى النزعة .

فنقل عن علماء اللغة ، وعلماء الأدب ، وعن الفلاسفة ، والمتصوفة (رابعة

---

(١) البصائر والذخائر ٥٠

(٢) البصائر والذخائر ٤

المدوية، يحي بن معاذ الرازى الجنَيد . البسطامى) وعلماء النحو ، والخطباء ، والخلفاء .

٤ — وذكر أنه جمعه فى خمسة عشر عاما مما سمع وقرأ ، ومثل للكتب التى قرأها ، فذكر كتب الجاحظ ، والنوادر لابن زياد الأعرابى، والكامل لابن يزيد الثمالى ، والعيون لابن قتيبة ، ومجالس ثعلب ، والأوراق للصولى ، والجوابات لقدامة ، هذا إلى غيرها مما جمعه الناس ، وحفظ ما نطقوا به .

ووعد بنسبه كل قول إلى قائله ، وردّ كل شىء إلى معدنه(١).

٥ — أورد حكما وأخبارا عن العرب ، وعن اليونان ، وكثيرا ما ذكر فلاسفتهم ، وذكر الكلبيين والإسكندر .

٦ — كان كثير الاستطراد فى كتابه هذا ، وهو فى استطراده لا يفعل ما فعله الجاحظ من قبل ، فيأتى بمُلحة أو نادرة للإضحاك وتجديد النشاط ، كما أنه لا يتوخى الصلة بين الموضوع الأصيل والموضوع الطارىء .

وإن كان قد دافع عن استطراده بقوله : « وإنما أقلبك من فن إلى فن ، لئلا تمل الأدب ، فإنه ثقيل على من لم تكن داعيته من نفسه » (٢).

على أنه كان فى استطراده اللغوى أكثر توفيقا .

وكثيرا ما يستطرد من النص إلى شرح بعض مفرداته ، ثم يستطرد من المشروح إلى ما يتصل به اتصالا لغويا ، كقوله : العرب تقول فى أمثالها : «الحسنُ أحمر » أى لا ينال النفيس إلا بشق الأنفس ، كأنه لا ينال إلا بالقتال وسفك الدم .

---

(١) البصائر والذخائر ٧

(٢) البصائر والذخائر ٨٣

ميم الدم خفيفة ، وباء الأب خفيفة ، فتوقّ لحن العامة وأشباه العامة من الخاصة ، ورُضْ لسانك على الصواب (١).

داء عُضال أى صعب ، وعُقام أيضا ، وهو الذى قد أعيا .

قالت ليلى الأخيلية :

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العُضال الذى بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها

ويقال : ما أبين الضّلاعة فى جملك ، أى ما أبين الشدة .

وضَلْعُ فلان مع فلان أى مَيْلُه . وفى الخلقة مَيَلٌ ياهذا محركة الياء ...

ويقال لتجدنه مُطّلعا لذلك الأمر ، أى غالبا له ، ومضطلعا لذلك أيضا (٢) .

أشير على الإسكندر بالبيات فى بعض الحروب ، فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظَفَر .

آيين لفظ فارسى يراد به السيرة والصورة والزى والرسم ، وما تعرفه العرب (٣).

أما استطراده فى غير اللغة فكان مبتسرا غريب الطريقة ، لا هدف له غير تسجيل الطرائف وجمع الحقائق .

فبينما يورد نصوصا فى التزهيد إذا به يزج بينها فكاهة بين حجام وحذّاء(٤) لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها ، ثم يورد بين نصوص أخرى فى التزهيد خرافة عن علاقة الحدب بالغريزة الجنسية لا صلة لها بما سبقها أو لحقها(٥) .

---

(١) البصائر والذخائر ٥٤ (٢) ٨٠
(٣) ٨٧ (٤) ١٥
(٥) ١٦

٧ — وفى هذا الكتاب تحرر من الجد والوقار أكثر مما فى كتبه الأخرى.

ففيه حكايات ما جنة ، كالحكاية التى بين الفرزدق ورجل[١] ، وما رواه عن كاتب كان بدمشق امرأة يهودية [٢] ، وما رواه عن ما كال التركى وجاريته[٣]، وبعض نوادر أخرى[٤] .

وإن كان هذا القدر قليلا فى الكتاب .

وقد علل لهذا المسلك بأنه تنشيط وترغيب ودفع للسأم ، فى قوله :

إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل ، الجارية على السخف ، فإنك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك ، وتبلد طبعك ...

فاجعل الاسترسال بها ذريعة إحماضك (إيناسك) والانبساط فيها سُلّما إلى جدك ، فإنك متى لم تُذِقْ نفسك فرحَ الهزل كَرَبها غم الجد، وقد طُبِعَتْ فى أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة ، ولا تحملْ فى شىء من الأشياء عليها ، فتكون فى ذلك مسيئا إليها[٥] .

نماذج من البصائر والذخائر

— ١ —

قال حماد : كان لإسحاق أبى غلام يستى الماء لمن فى داره ، على بغلين ، فانصرف أبى يوما ، فرآه يسوق البغل ، وقد قرب من الحوض الذى يصب فيه

(١) البصائر والذخائر ٤٩
(٢) ٩٠
(٣) ٩١
(٤) ٢٣٩
(٥) ٥٠

الماء . فقال : ما خبرك يا فَتْح ؟ قال : خبرى يامولاى أنه ليس فى الدار أشقى منى ومنك . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك تطعمهم الخبز ، وأنا أسقيهم الماء . فضحك منه ، وقال له : فما تحب أن أصنع بك ؟ قال : تعتقنى وتَهَبُ لى هذين البغلين . ففعل ذلك .

قيل للنظّام : أتناظر أبا الهُذَيل ؟ قال : نعم ، وأطرح له رُخاًّ من عقلى .

قال المتوكل لمحمد بن عبد الله بن طاهر : أتُجانبنى ؟ قال : أنا إلى مواصلة أمير المؤمنين أقرب .

قال على بن عُبَيْدة : قلت أبياتا من الشعر ، ووجهت بهـــا إلى إسحاق الموصلى ، وقلت إنها عارية فاكسُها ، فغنّى بها .

قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — لأبى ذرّ : من أغبطُ الناس ؟ قال : رجل بين أطباق الثّرى ، أمِنَ العقاب ، وهو يتوقع الثواب . فقال عمر : لو كنتَ أعددتَ هذا الكلام منذ حول لما زاد على هذا .

أم رجل عاملا فقال : لا تُضبط حاشيته ، فكيف تضبط قاصيته ؟

ولّى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — فدعا إياسَ بن معاوية ، فقال له : دُلّنى على قوم من القـرّاء أولّهم . فقال له : إن القراء ضربان : فضربٌ يعملون للآخرة ، فأولئك لا يعملون لك . وضرب يعملون للدنيا ، فما ظنّك بهـم إذا مكنتهم منها ؟

قال : فما أصنع ؟

قال : عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهـم ، ويرجعون إلى أعراقهم ، فولّهم .

قال بعض الأوائل : اجعل سرَّك إلى واحد ، ومشورتك إلى ألف .

وقال محمد بن عبـــد الله بن طاهر لولده : عِفُّوا تَشْرُفوا ، واعشقوا تظرُفوا(١) .

— ٣ —

قال فيلسوف : كما لا تشفق على عضو منك — إذا وقع فيه شيء — من القطع مخافة أن يسرى بك ، كذلك لا ينبغى أن تشفق على اختلاف التعب ، والصبر فى المكروه على إصلاح النفس .

وقال فيلسوف آخر : من القبيح أن تكون حاجة الإنسان إلى العقل أكثر من حاجته إلى المال .

سئل فيلسوف : أى الرسل أحرَى بالنُّجْح ؟

قال : الذى له جمال وعقل .

وقال فيلسوف : الحسَّادُ مناشير لأنفسهم .

رأى فيلسوف غلاما جميلا لا أدب له ، فقال : أىُّ بيتٍ لو كان له أساس .

سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟

فقال : إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غُلول فيه ، وحَجَّةٌ مبرورة .

قيل : فأى الصلاة أفضل ؟

قال : طول القيام .

---

(١) ٦٢

قيل : فأى الصدقة أفضل ؟

قال : جُهدُ المقِلّ .

قيل : فأى الهجرة أفضل ؟

قال : أن تهجر ما حرّم الله .

قيل : فأى الجهاد أفضل ؟

قال : من جاهد المشركين بنفسه وماله .

قيل : فأى القتل أفضل ؟

قال : من هُريق دمه فى سبيل الله[1]

يقال : هرقت الماء ، وأرقت الماء ، وقيل : أهرقت الماء . قال الشاعر :

شربنا فأهرقنا على الأرض فَضْلةً ولالأرض من كأس الكرام نصيبه

الجَريضُ : الذى يَغَصُّ بريقه . والمثل : حال الجريض دون القريض .
والوسق : الطور ، وجماعة وسائق .

والطّلا : ولد الضائنة ، والطلا : الصغير من ولد ذات الظّلف ، وإنما سمى طلا ، لأنه يُطْلَى فى رجله بخيط[2] . هكذا حفظته من المجالس[3] .

— ٣ —

قال على بن أبى طالب — رضى الله عنه — : قال رسول الله ﷺ — :
من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يَكْذِبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو

(١) راجع حلية الأولياء ١/١٦٦
(٢) أى تشد رجله بخيط ما دام صغيراً (٣) ١١٥ .

ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحَرُمت غيبته .

قيلَ لرابعة العدوية — وكانت ناسكة مُفَوَّهة ، وشأنها شهير ، وأمرها خطير — : كيف حُبُّك لرسول الله ﷺ ؟

قالت : إنى أحبه ، ولكن قد شغلنى حبُّ الخالق عن المخلوق .

هذا الكلام عويص التأويل ، خَرْطُ القتاد دونه ، ولَقْطُ الرمل أسهل منه ، وهى موكولة فيه إلى الله تعالى . وقد رويته كما رأيته .

قال يحيي بن معاذ الرازى :

إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه ، وإن سخط نفاه وأقصاه .

وقالت أعرابية عند الكعبة : إلهى ، لك أذل ، وعليك أدِلّ .

وقال الجُنَيْد بن محمد أبو القاسم الصُّوفى : إذا أحبك سترك ، وغار عليك ، وإذا أحببته شَهَّرك ، ونادى عليك .

وفخار البغداديين بالجُنَيْد عظيم ، يقدمونه على أبى يزيد البِسطامى[1] .

— ٤ —

قيل لفيلسوف : أى الحيوان أكثر صنعة مع محبته لها ؟

فقال : أما ما يُنْتَفَعُ به فالنحل ، وأما لا يُنْتَفَع به فالعنكبوت .

وجاء بعض الكلبيين — وهم جنس من اليونانيين — إلى الإسكندر . فقال له : هبْ لى مثقالا واحدا .

(١) ١٤٦ .

فقال الإسكندر : ليس هذا عطاء الملوك .

قال : فهَبْ لى قنطارا . فقال الإسكندر : ولا هذا سؤال كابى .

أشير على الإسكندر بالبَيات فى بعض الحروب .

فقال : ليس من آيين الملوك استراقُ الظفر .

آيين : لفظ فارسى ، يراد به السِّيرة والصورة والزى والرسم . وما تعرفه العرب ، وإنما ألقى الشىء على حد ما سمعته الأذن ، ووعاه الصدر ، والعون من الله تعالى على نصرة الحق ، والذب عن الصواب فيما تعلق بالدين ، وعاد إلى سياسة الحياة .

كان يوسف بن عمر يقول — إذا ذكر الحجاج — كان الدخان وأنا اللهب .

وقال عبد الله بن عباس رحمه الله : الخط لسانُ اليد .

وقال معن بن زائدة : ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله . قيل له : فإن رأيته وجهه ؟ قال : ذاك حينئذ كتاب أقرؤه[1] .

— ٥ —

قيل لأرسطا طاليس : ما بال الحَسَدَة يحزنون أبدا ؟

قال : لأنهم لا يحزنون لما ينزل بهم من الشر فقط ، بل لما ينال الناس أيضا من الخير .

وكان بعض السلف يقول : اللهم احفظنى من أصدقائى .

---

(١) ٨٦

فسئل عن ذلك فقال : إنني أحفظ نفسي من أعدائي .

وقال فيلسوف : حيث يكون الشراب لا تسكن الحكمة ، ولا تلبث الغفلة .

وقال صاحب المنطق : الأفلاك حصن للعاقل من الرذائل ، وطريق إليها للجاهل .

وكان بعض الفلاسفة يقول : استهينوا بالموت حتى يهون عليكم فراق الدنيا .

كان أبو هشام الرفاعي يعشق جارية سوداء سمينة ضخمة ، فكان يَمَص لسانها ، ويشم صُنانها ، ويستنشيء ريحها ، عجبا بها ...[٢].

---

(١) ٨٩

المحاضرات

إسمه المحاضرات[١] أو محاضرات العلماء[٢] أو المحاضرات والمناظرات .

لمن ألفه ؟

قال أبو حيان إنه اتصل بالدّلجى ، بشيراز ، وجمع له كتاب المحاضرات ، وتعب فيه[٣] . ثم تحدث عن إكرام الدلجى له ، ووفائه بما وعد من مكافأته[٤] .

وأغلب الظن أن فى كلمة (الدلجى) تحريفا ، لأنه لم يعرف شخص بهذا الاسم .

وقد تحقق الدكتور عبد الرزاق محي الدين من أن « المدلجى » الذى كان وزيرا لصمصام الدولة بشيراز مدة سجن وزيره أبى القاسم العلاء بن الحسن سنة ٣٨٢ إلى ٣٨٣ ﻫ ، نقلا عن الكامل لابن الأثير (جزء ٩ صفحة ٣٥) ونقلا عن غرر الخصائص الواضحة .

والمدلجى هذا هو أبو القاسم المعمر بن الحسين المدلجى[٥] .

موضوعه :

يبدو من بقايا الكتاب أنه أخبار أدبية خالصة ، ووصف لبعض مجالس العلماء ، وتسجيل لبعض ما دار فيها من علم وأدب .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٨ ، ١٤ و ١٨/١٠٢
(٢) المعجم ١/٦٧ ، ٨/١٥٢
(٣) معجم الأدباء ١٥ / ١٤
(٤) المعجم ١٥ / ١٦
(٥) أبو حيان التوحيدى ٢٤٣

نماذج من كتاب المحاضرات

— ١ —

تأخرت عنه أياما فقال لى : ياأبا حيان ، من أين ؟ فقلت :

إذا شئت أن تُقْلَى فزر متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبّا

وهذا الملال ظهر لى منه ، وقليل إعراض عنى فى يوم . فقال لى : ما هذا البيت إلا بيت جيد يعرفه الخاص والعام ، وهو موافق لما يذكر من أن النبى ﷺ قال : زر غِبا تزدد حبا . فلو كان لهذا البيت أخوات كان أحسن من أن يكون فردا .

قلت : فله أخوات . قال : فأنشدنى .

قلت : لا أحفظها . قال : فأخرجها . قلت : لا أهتدى إليها . قال : فمن أين عرفتها ؟

قلت : مرت بى فى جملة تعليقات .

قال : فاطلبها لأقدم رسمك . قلت : فقدّمه الآن على شريطة أنه إذا جاء الوقت المعتاد إطلاقه فيه كل سنة أطلقتُ أيضا .

قال : أفعل . قلت : نخذها الآن .

سمعت العروضى أبامحمد يقول : دخل بعض الشعراء على عيسى بن موسى الرافقى ، وبين يديه جارية يقال لها خلوب ، فقال لها : اقترحى عليه .

فقالت :

إذا شئت أن تقلى فزر متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبا

أجزه بأبيات تليق به . فأنشد :

بقيت بلا قلـب فإنى هائم فهل من مُعير يا حلوبُ لكم قلبا ؟

حلفتُ برب البيت أنك مُنيتى فكونى لعينى ما نظرتُ لها نُصبا

عسى الله يوما أن يرينيك خاليا فيزداد لحظى من محاسنكم نُجْبا

إذا شئت أن تُقلَى فزُرْ متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبا(١).

— ٣ —

حدثنا القاضى أبو حامد أحمد بن بشر قال : كان الفراء يوما عند محمد بن أبى الحسن، فتذاكرا فى الفقه والنحو . ففضل الفراءُ النحو على الفقه ، وفضل محمد بن الحسن الفقه على النحو ، حتى قال الفراء :

قلّ رجل أنعم النظر فى العربية ، وأراد علما غيره . إلا سهُل عليه . فقال محمد بن الحسن : يا أبا زكريا ، قد أنعمتَ النظر فى العربية ، وأسألك عن باب من الفقه . فقال : هات على بركة الله تعالى . فقال له : ما تقول فى رجل صلى فسها فى صلاته ، وسجد سجدتى السهو ، فسها فيهما ؟ فتفكر الفراء ساعة ، ثم قال : لا شىء عليه . فقال له محمد : لم ؟

قال : لأن التصغير عندنا ليس له تصغير ، وإنما سجدتا السهو تمام الصلاة، وليس للتمام تمام .

فقال محمد بن الحسن : ما ظننت أن آدميا يلد مثلك(٢).

---

(١) معجم الأدباء ١٥/١٤

(٢) معجم الأدباء ١/٦٨

— ٣ —

حضرت مجلس شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل ، أبي سعيد السيرافي ، وقد أقبل على الحسين بن مَرْدَوَيْه الفارسي يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه .

فقال له : تَعلَّق عليه ، واصرف همتك إليه ، فإنك لا تدركه إلا بتعب الحواس ، ولا تتصوره إلا بالاعتزال عن الناس .

فقال — أيد الله القاضي — : أنا مؤثر لذلك ، ولكن اختلال الأمر ، وتصور الحال يحول بيني وبين ما أريده .

فقال له : ألك عيال ؟ قال : لا . قال : عليك ديون ؟ قال : دريهمات . قال : فأنت رَيِّحُ القلب ، حسن الحال ، ناعم البال . اشتغل بالدرس والمذاكرة ، والسؤال والمناظرة ، واحمد الله تعالى على خفة الحاذِ — قلة المال — وحسن الحال ، وأنشده :

إذا لم يكن للمرء مال ولم يكن ... له طُرُقٌ يسعى بهن الولائد

وكان له خبز وملح ففيهما ... له بُلْغَةٌ حتى تجيء الفوائد

وهل هي إلا جَوْعَة إن سَدَدْتَها ... فكل طعام بين جنبيك واحد

ووقف رجل على الحسن فقال : علمني ما يقربني إلى الله تعالى وإلى الناس . قال : أما ما يقربك إلى الناس فتركُ مسألتهم[1] .

---

(١) معجم الأدباء ٨/١٥٢

— ٤ —

لما مات المراغى — وكان قدوةً فى النحو ، وعلما فى الأدب كبيرا ، مع حداثة سنه ورقة حاله ، وإن قلتُ إنى ما رأيت فى الأحداث مثله كان كذلك — استرجع أبو سعيد السيرافى ، واستعبر ، وأنشد :

من عاش لم يخلُ من هم ومن حَزَنٍ ... بين المصائب من دنياه والمحنِ
وإنما نحن فى الدنيا على سفر ... فراحلٌ خلّف الباقى على الظّعَن
وكلنا بالردى والموت مُرتَهَنٌ ... فما نرى فيهما فكّا لمرتهنِ
من الذى أمّن الدنيا فلم تخُن ... أو الذى اغتر بالدنيا فلم يهنِ ؟
كلٌّ يقال له : قد كان ، ثم مضى ... كأن ما كان من دنياه لم يكن

ثم قال : قوموا بنا لتجهيزه وتولية أمره ، فتبعناه على ذلك . فلما أخرجت جنازته بكى وأنشد :

أساءت بنا الأيام حُبَّتَ أحسنت ... وكلّ من الأيام غيرُ بديع
وما زال صرفُ الدهر مذ كان مولعا ... بتأليف شتى أو بشَتّ جميع[1]

(١) معجم الادباء ١٠٢/٨

تقريظ الجاحظ

تنبىء كتب أبي حيان عن إعجابه بالجاحظ ، وتقديره له ، وعن تأثره به .

فهو يرجع إليه ، ويتوفر على تصحيح كتاب الحيوان ، ويثني على مؤلفاته كلها .

وقد ذكر كتب الجاحظ في مراجعه التي استقى منها كتابه البصائر والذخائر ، وأطراها بقوله : « وكتبه هي الدُّر النثير ، واللؤلؤ المطير ، وكلامه الخمر الصِّرف ، والسحر الحلال »[1] .

وذكر أن ابن سعدان استكتبه كتاب الحيوان للجاحظ ، لأنه يعلم عنايته به ، وتوفره على تصحيحه[2] .

وازدهاه أن ثابت بن قرة الصابىء يعد الجاحظ مفخرة من مفاخر الأمة العربية[3] .

فلا عجب في أن يؤلف كتابا في تقريظه ، وقد نقل ياقوت هذا الكتاب[4] .

---

(١) البصائر والذخائر ٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٥

(٣) معجم الأدباء ٩٥/١٦

(٤) معجم الأدباء ٢٧/٣ ، ٩٥/١٦ — ١٠٢

نماذج من تقريظ الجاحظ

— ١ —

قال ياقوت[1] : قرأت بخط أبى حيان التوحيدى من
فى تقريظ الجاحظ :

وحدثنا أبو سعيد السيرافى — وحسبك من رجل و
وشرعك من مصدوق — قال : حدثنا جماعة من الصا
ثابت بن قرة قال : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة

عقيم النساء فلا يلدن شبيهه إن النساء بمثـ

فقيل له : أحص لنا هؤلاء الثلاثة .

قال : أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته وحذر
وتقيته ، وجزالته وبذالته وصرامته وشهامته ، وقيامته فـ
وكبير بنفسه ...

والثانى الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فلقد كان من د
وتقوى وزهدا وورعا وعفة ورقة ...

والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتـ
المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة
النظام فى الجدال ، وإن جد خرج فى مسك عامر

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٩٥ — ١٠٢

وإن هزل زاد على مُزيد. حبيب القلوب ومزاج الأرواح وشيخ الأدب ولسان العرب .

وكتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازع إلا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء . الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلّم له ، والعامة تحبه .

جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ،

طال عمره وفشت حكمته ، وظهرت خلّته ، ووطىء الرجالُ عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به .

لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

هذا قول ثابت بن قرة ، وهو قولُ صابىء لايرى للإسلام حرمة ، ولا للمسلمين حقا ، ولا يوجب لأحد منهم ذِماما . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لاغشاوة عليها من الهَوْل — خوف النقد — ونفس لا تَنطبع — لالوث — بها من التقليد ، وعقل ما تخيّل بالعصبية .

— ٢ —

ولسنا نجهل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر والخلف الصالح .

ولكننا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا ولا من أهل ملتنا ولغتنا — ولعله ما خبر عمر ابن الخطاب كل الخبرة ، ولا استوعب كل ما للحسن من

المنقبة ، ولا وقف على جميع ما لأبى عثمان من البيان والحكمة — يقول هذا القول ، ويتعجب هذا التعجب ، ويحسد أمثالهم هذا الحسد ، ويختم كلامه بأبى عثمان ، ويصفه بما يأبى الطاعن عليه أن يكون له شىء منه ، ويغضب إذا ادّعى ذلك له لمُوفِزٍ عليه — حقد يحمله يثب — هل هذا إلا الجهل الذى يُرْحم المبْتَلى به ؟

— ٣ —

قيل لأبى هفّان : لم لاتهجو الجاحظ ، وقد ندّد بك ، وأخذ بمُخنّقك ؟ فقال : أمثلى يُخْدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمْسَت إلا بالصين شهرة . ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت فى ألف سنة .

— ٤ —

قلت لأبى محمد الأندلسى — يعنى عبدالله بن حَمُّود الزُّبَيْدى — وكان من عدد أصحاب السيرافى : قد اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدِّينَوَرِى ، صاحب النبات[1] ، ووقع الرضا بحكمك ، فما قولك ؟ قال : أنا أحْقِر نفسى عن الحكم لهما وعليهما . فقيل له : لا بد من قول .

قال : أبو حنيفة أكثر نَدَارة[2] ، وأبو عثمان أكثر حلاوة . ومعانى أبى عثمان لائطة[3] بالنفس ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

---

(١) اسم كتاب من تأليفه . وكان نحوياً لغويا مهندسا منجما حاسبا راوية ثقة ، وتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٢) ذكر النوادر (٣) لاصقة

قال أبو حيان : والذى أقول وأعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان[1] على تقريظهم ونشر فضائلهم ... لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم . أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة ، وبسببه جُشِّمنا هذه الكلفة ، أعنى أبا عثمان عمرو بن بحر . والثانى أبو حنيفة الدينورى ... والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البَلْخِىّ . . . ولو تناصرت إلينا أخبارهما لكُنَّا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا إليه ، كما فعلت بأبى عثمان »[2] .

---

(١) الإنس والجن

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٢٧

رسالة العـــلوم

دافع فيها عن العلوم ، وبين الحاجة إليها ، ومثل بالفقه والسنة والقياس وعلم الـكلام والنحو واللغة والمنطق والنجوم والحساب والهندسة والبلاغة والتصوف.

نماذج من رسالة العلوم

— ١ —

والذى هاجنى لهذه الشـكوى ، وأحوجنى إلى هذه العدوى ، قولُ قائل منـكم: ليس للمنطق مدخل فى الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير فى الأحكام .

وهذا كلام من لو أتم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ما له منه ، فـكان يستبدل بالخلاف وفاقا ، وبالمنازعة خلافا .

عاب هذا الرجل المنطق ، وهجّن طريقة الأوائل ، وزَرَى على الحـكمة ، وفيّل رأى الناظر فيها ، وقبّح اختيار الباحث عنها .

وهذا كله — إن لم يكن قُتَّله — سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن ، وحَرَج صدر ، ومجازفة فى القول ، وانحرافا عن الصواب ، وأَمْناً من الاعتقاب .

الدليل على ذلك ، والبرهان فيه أنه قد سبق فى قضايا العقول الصحيحة ، وثبت فى مقدمات الألباب الصريحة ، أن العلم أشرف من الجهل ، بل لا شَرَفَ للجهل ، فيكون غيره أشرف منه ، لأن الجهل عدم . هكذا قيل ، والوجود أشرف

من العدم ، والصحة أشرف من السقم . وإذا كان العلم شريفا وأشرف من كل شيء ، فقد استوعب الجنس هذا العموم ، واشتمل على الأصل والفرع هذا الإطلاق ، لأن العلم بالألف واللام لا يختص معلوما دون معلوم ، ولا مشارا إليه دون مدلول عليه ، فقد دخل فى هذا الطى كل ما أنبأ عن شيء كان ذلك من قبيـــل الحسن عند مصادمته ، أو من قبيل العقل عند مصادفته .

وسأبين أصناف العلم فى هذا الموضع على وجه الإيجاز ، فإن استقصاءها لا تحويه هذه الرسالة ، ولا يتسع له هذا الوقت .

على أن شيوخ العلم ، وأرباب الحكمة ، وفرسان الأدب ، قد فرغوا من جميع ذلك فى كتب مشهورة ، تشتمل على آداب مأثورة ، مثل كتاب أقسام العلوم ، وكتاب اقتصاص الفضائل ، وكتاب تسهيل سبل المعارف . فمن نظر فى هذه الكتب عرف مغازى الحكماء ، ومرامى العلماء ...[1]

— ٢ —

أما الفقه فإنه دائر بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار العلل فى القضايا والأحكام ، وبين الفرض والنافلة ، وبين المحظور والمباح ، وبين الواجب والمستحب ، وبين المحثوث عليه والمنزه عنه . وكل ذلك موقوف على ظاهر الكتاب وباطنه ، وتنزيله وتأويله ، ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، وتقديمه وتأخيره ، وعمومه وخصوصه ، وإجماله وتفسيره ، وإطلاقه وتقييده ، وجمعه وتوحيده ، وكنايته وضميره ، ومجازه وحقيقته ، وتعريضه وتصريحه[2] ...

---

(١) ٢٠١ ملحق برسالة الصداقة والصديق .
(٢) ٢٠٢

— ٣ —

وأما الناظر فى البلاغة فإنه مشامٍ لكل صنف سلف وصفه ، وتقدم نعته ، لأنه يباشر بلسانه وقلمه أحولا مشتبهة ، يروم فيها أقصى معانيها .. لأنه قد يدفع بصناعته إلى سلّ السخائم ، وإلى حل الشكائم ، وإلى الغارة فى المُلك ، وإلى دقيق ما يتعلق بالخاصة ، وجليل ما يرجع نفعه إلى العامة ، فعقله أبدا مسافر ، ولفظه متتبع ، والناس له أعداء ، لأنهم بين جاهل لا يلحظ ما لحظ ، وعالم يحسده على ما لفظ . وعند ذلك يلزمه مداواة الجهل بالإعراض ، ومداواة العالم بالانقباض .

والذى ينبغى له أن يبرأ منه ، ويتباعد عنه ، التكلف ، فإنه مَفْضَحة ، وصاحبه مذموم ...

ومن استشار الرأى الصحيح فى هذه الصناعة الشريفة علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه متى فاته اللفظ الحر ، لم يظفر بالمعنى الحر[1] ...

---

(١) ٢٠٦

الزلفـــة

لسنا نعرف شيئا عن هذا الـكتاب ، وإن كان النموذج الباقى منه يرجح لدينا أنه فى التصوف والزهد أو ما يتصل بهما .

نماذج من كتاب الزلفة

لما مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ قال أبو حيان فى كتابه (الزلفة) : لماصحت وفاة عضد الدولة كنا عند أبى سليمان السجستانى (محمد بن طاهر بن بهرام المنطق) وكان القومسى حاضرا والنوشجانى وأبو القاسم غلام زحـــل (أبو القاسم ابن الحسن المنجم) و ... فتذاكروا الـكلمات العشر المشهورة التى قالها الحـكماء العشرة عند وفاة الإسكندر .

فقال الأندلسى : لو قد تقوض مجلسكم هذا بمثل هذه الـكلمات لـكان يؤثر عنـكم ذلك .

فقال أبو سليمان : ما أحسن ما بعثتَ عليه . أما أنا فأقول : لقد وزن هـذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاها فوق قيمتها . وحسـبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه فى الدنيا .

وقال الصَّيمرى : من استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلم بها فهذا انتباهه .

وقال النوشجانى : ما رأيت غافلا فى غفلته ، ولا عاقلا فى عقله مثله ؛ لقد كان ينقض جانبا وهو يظن أنه مُبْرِم ، ويَغْرم وهو يرى أنه غانم .

وقال العروضى : أما إنه لو كان معتبرا فى حياته لما صار عبرة فى مماته .

وقال الأندلسي : الصاعد في درجاتها إلى سَفَال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال القَوْمسي : من جدّ للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغبا جدّت له .

انظر إلى هذا كيف انتهى أمره ، وإلى أي حضيض وقع شأنه ، وإني لأظن أن الرجل الزاهد الذي مات في هـذه الأيام ودفن بالشونيزية أخف ظهرا وأعز ظهيرا من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .

وقال غلام زحل : ما ترك هذا الشخص استظهارا بحسن نظره وقوته ، ولـكن غلبه ما منه كان، وبمعونته بان .

وقال ابن المقداد : إن ماء أطفأ هذه النار العظيم ، وإن ريحا زعزعت هـذا الركن لعَصُوفٌ .

فقال أبو سليمان : ما عندي في هذا الحديث أحسن مما سمعت من أبي إسماعيل الخطيب الهاشمي لما نعاه على المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته : كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ؟ وهلا اتخذت دونه جُنّة تقيك ؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد ، ورجالك والجنود ، وبحَولك المتيد ، وبدهائك الشديد ..[1]

---

(١) ذيل تجارب الأمم ٧٥

الإشارات الإلهية

ذكره ياقوت وقال إنه جزآن .

والجزء الأول مخطوط بدار الكتب بدمشق بالمكتبة الظاهرية ، وبالعمرية بالقدس ، ومنه مخطوط فى مكتبة برلين ، كما ذكر بروكلمان .

ويظهر أنه ألفه فى أواخر حياته ، بدليل قوله لبعض مريديه : « أنا نطقتُ بهذه الألفاظ بعد سبعين سنة ، وقد تحطمتْ قناتى ، وتكمشت شَواتى ، وتفللت صَفاتى ، واضمحلت صِفاتى ، وبليت لُحمتى وسَداتى ، وفقدت شهواتى ولذاتى ، ومُنيت بموت أحبتى ولِداتى »[1]

وبدليل السجع المتصل فيه .

موضوعه

توجيه ، وتهذيب للصوفية ، وحض لهم على تحلية نفوسهم بالعبادة والطاعة ، ليزدادوا عرفانا بالله ، وتعلقا به ، وبعدا عما سواه ، وتضرع إلى الله ، ودعوات .

طريقته

الكتاب فى رسائل ، تبدأ كل رسالة بدعاء طويل ، بعده موعظة وإرشاد .

وليس فى الكتاب شكوى ولا حقد ولا ثلب ولا حملة على أحد .

وأسلوبه فى هذا الكتاب مسجوع فى فقرات قصار تشبه الشعر المنثور .

---

(١) النسخة الظاهرية ورقة ٩٣ عن (أبو حيان التوحيدى للدكتور عبد الرزاق محي الدين) ٢٣٦

ولعل أبا حيان بنثره الجميل المسجوع هو الذى استطاع أن يحـل النثر محل الشعر فى التصوف والابتهال .

نموذج من الإشارات الإلهية

« اللهم إليك أشـكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد — وحقك — شددت الوثاق ، وضيقت الخناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك على ساق . فبحقك وعزتك إلا أرضيتَ وتغمـّدت ، وأحسنتَ وتفضلت .

اللهم إن مرضنا كان بك ، فاجعل شفاءنا على يدك . وإن خلافنا لك كان بقضائك ، فاغفر لنا الآن بتفضلك وحبائك ، وإن زيّغنا كان بعلمك بنا وحلمك عنا ، فاجعل تقويمنا الساعة بلطفك عندنا ، وتفضلك علينا[1] » .

---

(١) الإشارات الإلهية ٤٣ — ٤٥ مخطوط . نقلا عن (أبو حيان التوحيدى الدكتور عبد الرزاق محى الدين ٢٣٥)

خصائصه الفكرية والفنية

كان في القرن الرابع كتاب يجولون في الموضوعات الثقافية ، ويغذون عقولهم وقراءهم بألوان من المعرفة ، يصورونها بأقلامهم الفنية ، ويهتمون بالتعبير القوى عن أفكارهم ، في غير إيثار للتزويق على الفكرة . من هؤلاء أبو حيان،وابن إسحاق الصابي،ومسكويه،والشريف الرضي .

وكان في العصر كتاب آخرون ، جُلُّ موضوعاتهم رسائل ديوانية وإخوانية ومقامات وعهود ، وطريقتهم تعتمد على إيثار اللفظ والصناعة .

ومنهم ابن العميد،وبديع الزمان،والخوارزمي،وابن عباد .

والعجب أن الغلبة صارت لهؤلاء ، لأن أكثرهم من الوزراء والحكام وذوى الجاه ، ولأن مقاليدالحكم بأيدى الأعاجم ، وهم يجنحون إلى الزخرف والصناعة ، ولأن العربية الأصيلة كان ظلها يتقلص في الأدب والتعبير ، كما تقلص سلطانها في الملك والحكم والسياسة .

أما أبو حيان فقد خرج على الموضوعات الغالبة في عصره ، من رسائل إخوانية وديوانية ومقامات وكتب عهود .

وخرج أيضا على الأسلوب الشائع في القرن الرابع ، أسلوب الاحتفال باللفظ والصناعة أكثر من الفكرة .

ولهذا قدّره كثير من الدارسين المحدثين ، مثل السندوبي ومحمد كردعلى وزكي مبارك،وعبد الرزاق محي الدين .

وقدّره المستشرق آدم متز في قوله : ربما كان أبو حيان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق[١] . وفي قوله أيضا :

« إن رسائل القرن الرابع الهجري هي أجمل آية للفن الإسلامي ، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهي اللغة . ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم لناصية البيان في أصعب صوره ، وتلاعبهم بذلك تلاعبا ...

إلى أن يقول : هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة جعلت اللغة سلسلة القياد ، قوية التعبير ، وزادتها تلطيفا رغم الاختصار . وهي الطريقة التي لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما في نفوسهم ، مراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير . وقد بلغ أبو حيان التوحيدي المتوفى عام ٤٠٠ ﻫ مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة .

وأول ما نلاحظه أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادرا عليه . غير أننا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء .

ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيرا عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان . ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع . ولقد كان أبو حيان فنانا غريبا بين أهل عصره ، وكان يعاني وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم[٢] .

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٩٥ آدم متز .
(٢) المرجع السابق ٣٩٩ — ٤١٦

وهذه خصائص أبي حيان التي امتاز بها .

— ١ —

يمتاز أبو حيان بأنه — في أكثر ما يكتبه بأسلوبه — لا يمدُّ قلمه من عقله وحده ، ولا يعتمد على جرْس الكلمة ووقع الجملة فحسب ، وإنما يمدُّ قلمه من قلبه ، ويعتمد على حرارة عاطفته وقوتها وصدقها . فهو كاتب فكرة حيث يعبر عن فكرة ، وهو كاتب عاطفة حيث يصور عاطفة ، ولقد يكتب عن الفكرة بقوة وحرارة ، فيمزج عاطفته بفكرته ، لأنه يدين بما يقول ، ويناضح عن رأى أو مذهب .

ومن هنا كانت الحيوية والقوة والحرارة غالبة فيما كتب أبو حيان بقلمه ، وفيما نقله عن غيره أو رواه عنه بعد أن أعمل فيه قلمه ، وهذبه بفنه .

ومن هنا نجد الفرق واضحا بين أسلوبه وأسلوب كثير من معاصريه ، ونلمسه بيِّنا بين ما نقله عن معاصريه بأسلوبهم، وما نقله عنهم بأسلوبه .

وخير ما يمثل مذهبه قوله إن البليغ ينبغى له أن يبرأ من التكلف ، ويتباعد عنه ، لأنه مفضحة ، وصاحبه مذموم . ومن استشار الرأى الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه حتى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر[1] .

وهذه السمة تتضح أبرز ما تتضح فى شكواه من حظه ، وتصويره لبؤسه، ووصفه للمشقات التى لاقاها ، وخيبـــة الأمل التى منى بها ، حتى لكأنه شاعر مهتاج .

مثل قوله :

قد أصبحنا فى هذه الدار ، وكأنما هى قاع أملس ، أو أثر اخرس . لم يَبْقَ من يُرتَضى هديه ، أو يخطب عُرفه ، أو يقتضى جوده ، أو يُقْتَدح زَنده .

(١) رسالة العلوم ملحقة بالصداقة والصديق ٢٠٦

أو يستفاد لفظه ، أو يُتَـوَخّى مكانه ، أو يُشرف حدّه بأدب من الآداب عليه ، أو يُباشُ بوجه من الوجوه إليه ، وما ذاك إلا لتَـمَل القلوب ، ودَخل الأعراق ، وخلوقة الدين ، وغلبة القحة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ، ورفض السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر[1].

وقوله :

« فقدتُ كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى . فإن اتفق فبقّال أو عصّار أو ندّاف أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى — ضايقنى — بصُنانه ، وأسكرنى بنتنه . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النّحلة ، غريب الخُلُق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا للأذى ، يائسا من جميع من ترى »[2].

— ٢ —

على أنه قد سجّل ثقافة معاصريه ، ومن قبلهم ، بكثرة ما روى عنهم ، ونقل من كتبهم ، وسمع من أفواههم . وسجّل ما كان يسمعه فى مجالس العلماء والأدباء من محاورة ومجادلة ومناظرة .

وقد أوضحنا هذا فى تحليل كتبه .

وهو الوحيد الذى دوّن المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس ، فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى[3] .

(١) المقابسات ١١٧

(٢) الصداقة والصديق ٦

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٠٨/١ ومعجم الأدباء ١٠٥/٣

— ٣ —

وامتاز أبو حيان بثقافته الواسعة ، وجنوحه إلى تزويد الأدب بألوان شتى من المعرفة والعلوم ، كما رأينا فى تحليل مؤلفاته ، ففيها أفانين من اللغة والنحو والصرف والفلسفة والتصوف والفقه وعلم النفس والحيوان والنبات .

وهو بهذا أديب عالم ، أكثر مما كان الجاحظ أديبا عالما .

— ٤ —

وإذا كان لأبى حيان أشباه فى بعض خصائصه ، فإنه قد تفرد بوصفه للرجال ، وتحليل نفسياتهم ، والكشف عن مواهبهم ومميزاتهم ، وبيان مكانتهم ومالهم وما عليهم .

ويطول بنا القول إن حاولنا عرض نماذج عدة من وصفه لمواهب الرجال وخصائصهم .

وقد مثلت لوصفه لبعض الشعراء فى تحليل كتاب الإمتاع والمؤانسة .

وهذا مثال من وصفه للعلماء :

« أبو سعيد (السيرافى) أجمع لشَمْل العلم ، وانْظم لمذاهب العرب ، وأدخلُ فى كل باب ، وأَخرجُ من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وأَرْوَى فى الحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفَتوى ، وأحضر بَرَكة على المختلفة ، وأظهر أثرا فى المقتبسة ..

وأما على بن عيسى (الرُّمَّانى) فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام

والعروض والمنطق ، وعِيبَ به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفْرَدَ صناعةً ، وأظهر براعة . وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا . هذا مع الدين الشخين ، والعقل الرزين .

وأما ابن المراغى[1] فلا يَلْحق بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحفظ ، وعزة النفس ، وبلل الريق ، وغزارة النفث ، وكثرة الرواية ، ومن نظر فى كتابه (البهجة) عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف .

وأما المرزُبانى وابن شاذان وابن القِرْمِسينى وابن حَيُّوَيْه فهم رواة وحملة ، ليس لهم فى ذلك نَقْطٌ ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام[2] .

وقال فى وصف أبى سليمان المنطقى :

أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة . ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز[3] .

ووصف أبا إسحاق الصابى بأنه أحب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجة الوسطى ، وإنما يصاب بقلة نصيبه من النحو .

ومعانيه فلسفية ، وطباعه عراقية ، وعادته محمودة ... ونظمه منثوره ، ونثره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبِك فهو واحد ، هذا مع الظرف الناصع

---

(١) أبو الفتح محمد بن جعفر الهمدانى كان حافظاً نحوياً بليغاً إخباريا فى نهاية الشرف والحرية . وله كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٢٩/١ — ١٣٤

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣٣/١

والتواضع الحسن، واللهجة اللطيفة ، والخُلُق الدّمِث ، والمعرفة بالزمان ، والخبرة بأصناف الناس ... (١)

— ٥ —

تنبيء قراءة كتبه عن قدرة قادرة على صياغة الأفكار ، والترجمة عما بالنفس من مشاعر وآراء .

فإذا عبر بأسلوبه عما يجيش بنفسه ، أو عبر بأسلوبه عما يحكيه عن غيره في العلم والفلسفة والأدب، أو روى عن غيره حادثا وقع أو قصة كانت ، أو صور مناقشة دارت ، أو مناظرة حدثت ، أجاد وصف ما وصف ، وأبدع في التعبير عما حدث ، فإذا هو قدير على نقل الخواطر ، كأنما هي خواطره .

ولسنا نشك في أنه كان كثيرا ما يعمد إلى بيانه فيستمده صقل ما سمع من سواه ، ويفتَنّ بقلمه في تصويره ما يسجل ، ودليلنا على هذا أن أسلوبه — أحيانا كثيرة — واحد فيما يتحدث به عن غيره، وفيما يصور به ذات نفسه، سواء أكان تصويره هذا تعبيرا عن شعور، أم إبرازا لفكرة، أم تصويرا لحال من الأحوال وحادثا من الحوادث.

وهذا هو السبب في أننا نجد فرقا كبيرا بين ما يرويه عن غيره بلغته الأصيلة ، وما يرويه في كساء من عبارته وتنميقه .

وقد كان هو يعرف ذلك ، وكان بعض أصدقائه يثق بذلك ، لهذا فإننا نصدقه في قوله :

قال لي بعض من أثق بِنُحْلته : ينبغي أن تتأنّى لعمل ما أهّلك فلان له ، وشرّفك

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٧

به ، وتخف إلى مراده (يريد تأليف كتاب المقابسات) وليس فى فرش فضائل هؤلاء المشايخ ونقل كلامهم عليك مئونة ، ولا مشقة فادحة ، ولا كلفة شديدة ؛ إن لم تبلغ فيها ذروة الخاصة لم تقع منها إلى حضيض العامة ، بل إن لم يزد ما تحكيه عنهم رونق لفظ، وبهاء وصف ، وتقريب بعيد ، وإيضاح مشكل ، لم تبخسه حظه من الحقيقة التى إليها انتهت المطالبة[1].

— ٦ —

اتخذ النثر سلاحا للهجاء ، بدلا من الشعر ، وصور به غيظه وسخطه على من هجاهم .

كما نجد فى هجائه لابن عباد ، وثلبه بعض معاصريه من علماء وشعراء وكتاب وحاشية .

وإن شئت فقل إنه صور بنثره مساوىء معاصريه ، كما تحدث عن ميزاتهم وفضائلهم ، مع تحامل خاص على ابن عباد .

قال فى وصف ابن عباد :

تراه عند هذا لهَـدَر وأشباهه يتلوّى ويتَـبَـسَّـم ، ويطير فرحا ويتـقسَّم ، ويقول : ثمرة السَّبْق لهم ، وقصَّـرنا أن نَلْـحقَـهم،أو نقفو أثرهم،ونشق غبارهم ، أو نَرِد غِمارهم . وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَـلْوى شِدْقه ، ويبتلع ريقه ، ويَرُدُّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتمـنع ، ويغضب فى عَرْض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ، ويحاكى المومسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات[2].

---

(١) المقابسات ١١٨

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٥٩/١

— ٧ —

كان أبو حيان بصيرا بما يتطلب التعبير الفنى من دقة وجهد ، فهو يقول : إن الكلام صَلِفٌ تيّاه ، لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل لسان ، وخطره كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أَرَنٌ كأرن المهر ، وإباء كإباء الحَرُون ، وزهوٌ كزهو الملك ، وخَفْق كخفق البرق ، وهو يتسهّل مرة ، ويمتنع مرارا ، ويذل طورا ، ويعز أطوارا »[1] .

ولهذا نجده قد برع فى استعمال الكلمات ، لأنه صاحب حس لغوى دقيق فى وضعها المواضع الملائمة لها .

وقد يَسَّر عليه هذه البراعة علمه باللغة ، وحفظه لمفرداتها ، وبَصَره بمعانيها ، وذوقه المرهف فى معرفة مدلولاتها ومناسباتها .

كقوله : « اللهم فلا تُخَيِّبْ رجاء هو مَنُوطٌ بك ، ولا تُصْفِرْ كفًّا هى ممدودة إليك ، ولا تُذل نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تُقْذِ عينا فتّحتها بنعمتك ، ولا تُخرس لسانا عودته الثناء عليك »[2] .

فهو يدعو الله ألا يخيب رجاءه ، وألا يصفر كفه ، وألا يذل نفسه ، وألا يسلب عقله ، وألا يقذى عينه ، وألا يخرس لسانه . وفى هذا دقة أي دقة ، لأن فيه ملاءمة بين الطلب والمطلوب .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٩

(٢) البصائر والذخائر ٣

ولو أنه قال مثلا : اللهم لا تخيب كفا هى ممدودة إليك ،ولاتقذ نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تخرس عقلا هو مستضىء بنور هدايتك . لو أنه قال مثل هذا لخرج عن حد البراعة فى الاستهلال .

ثم إنه وصف كل مطلوب بما يلائمه ، فالرجاء منوط ، والكف ممدودة ، والنفس عزيزة ، والعقل مستضىء ، والعين مفتحة ، واللسان لاهج بالثناء .

ولو فعل غير ذلك لكان غير دقيق ، كأن يقول : اللهم لا تخيب رجاء هو عزيز بمعرفتك ، ولا تقذ عينا هى منوطة بك ، ولا تسلب عقلا عودته الثناء عليك .

ومن هذا الضرب قوله :

وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة ، لأنه لا يخلو أحد من جار أو مُعامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سَكَن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولىّ أو خليط ، كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشح أو مُداج أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مُؤْذ أو منابذ أو معاند أو مُزِل أو مُضِل أو مُمِل[1] .

— ٨ —

يغلب عليه إيثار الإطناب ، سواء أكان بالكلمات المترادفة التى تؤدى معنى واحدا ، أو معانى جد متقاربة ، أم بتكرير المعنى بعبارات متغايرة كقوله :

---

(١) الصداقة والصديق ٧٩

اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ومظنته ومعروف به ، ونلتمس منك ما أنت واجده وقادر عليه ومأمول فيه . فهب لى بجودك ومجدك رَوْح القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب القصد بثبات العقد ، وبلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وفاشى النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز[1] .

وقوله :

ومتى أنصَفَتْك نفسك ، وهدتك الرأى ، ومَلَّكتك الزمام ، وجَنَّبتك الهوى ، وحملتك على النهج ، وحمتك دواعى العصبية ، علمتَ علما لا يخالطه شك ، وتيقنتَ يقينا لا يَطُوره (لا يقرب منه) ريب، أنك ممن كُفِى مئونة التعب بنصَب غيره ، ومنح شريفَ الموهبة بطلب سواه[2].

وقوله :

فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دُخْلته ؟ وما خبره ؟ فقد بلغنى أنك تغشاه ، وتجلس إليه ، وتُكْثِر عنده ، وتُوَرِّق له ، ولك معه نوادر مضحكة ، وبوادر معجبة . ومن طالت عشرته لإنسان صدَقَتْ خِبْرته به ، وانكشف أمره له ، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه ، وخاف مذهبه ، وعويص طريقته[3] .

وقوله : قد فهمتُ أيها الشيخ ، حفظ الله روحك ، ووكل السلامة بك ، وأفرغ الكرامة عليك ، وعصَب كل خير بحالك ، وحشد كل نعمة فى رحابك ، ورحم هذه الجماعة الماثلة — من أبناء الرجاء والأمل — بعنايتك ، ولا قطعك

---

(١) المقابسات ١١٦

(٢) البصائر والذخائر ٤

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/٤

مَنْ عادة الإحسان إليهم ، ولا تَثْنِى طرفك عن الرقة لهم ، ولا زهّدك فى اصطناع حالِيهم وعاطلهم ، ولا رغب بك عن قبول حقهم لبعض باطلهم ، ولا ثَقّل عليك إدناء قريبهم وبعيدهم ، وإنالة مستحقهم وغير مستحقهم[١].

— ٩ —

يكثر من الفصل بين أجزاء الجملة الواحدة بجمل معترضة ، للدعاء ولغير الدعاء ، بعضها قصير وبعضها طويل .

فمن الجمل المعترضة القصار الدعائية قوله :

وقال — أدام الله دولته ، وبسط لديه نعمته — قدّمْ هذا الفن على غيره[٢].

وقوله : قلتَ لى — أدام الله تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كل رأى ونظر — إنك تعلم[٣] ...

ومن الجمل المعترضة القصار التى ليست للدعاء قوله :

فقلت : أيها الوزير ، ما أعرف اليوم ببغداد ـ وهى الرقعة الفسيحة الجامعة ، والعرصة العريضة الغاصّة — إنسانا أشكَرَ لك ، وأحسن ثناء عليك ، منه[٤]

ومن الجمل المعترضة الطوال قوله :

لما مات المراغى — وكان قدوة فى النحو ، وعلما فى الأدب كبيرا ، مع حداثة سنه ، ورقة حاله ، وإن قلتُ إنى ما رأيت فى الأحداث مثله كان كذلك — استرجع أبو سعيد السيرافى واستعبر[٥] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦٠

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/٣

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٩

(٥) معجم الأدباء ١٨/١٠٢

— ١٠ —

أكثر من الجمل الدعائية ، وخاصة فيما يبعث به إلى الوزراء ، أو راسلهم به ، وفى ذكره للذين يجلهم كأبى سعيد السيرافى .

كقوله لأبى الوفاء المهندس :

أيها الشيخ — أطال الله يدك فى الخيرات ، وزاد فى همتك رغبة فى اصطناع المكرمات ، وأجراك على أحسن العادات ، فى تقديم طلاب العلم وأهل البيوتات — قد فرغت فى الجزء الأول على مارسمت فى القيام به[1].

وقوله فى مقدمة المقابسات :

أطال الله حياتك ، وأعز قدرك ، وأكرم مثواك ، وقرن النجح بسعيك ، وضاعف منائحه قبلك ، وأدامها لك ، وذب عنها ما يكدرها عليك[2] .

— ١١ —

برع أبو حيان فى تنغيم الوقع الموسيقى للجمل ، بتقسيمها إلى فقرات قصار ، متناسبة الطول ، يكثر فيها الازدواج ، ليكون أثرها على السمع وفى النفس أشبه بالشعر .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١
(١) المقابسات ١١٧

كقوله :

اللهم إنى أسألك جدا مقرونا بالتوفيق ، وعلما بريئا من الجهل ، وعملا عريا من الختل ، وقولا موشحا بالصواب ، وحالا دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مبصرة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولا بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدار مقصودة بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى محمودة عندك بالأفضل فالأفضل ، من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ووعدك الحق ، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه .

اللهم فلا تخيب رجاء هو منوط بك ، ولا تصفر كفا هى ممدودة إليك ، ولا تذل نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تقذ عينا فتحتها بنعمتك ، ولا تخرس لسانا عودته الثناء عليك [١] .

وقوله :

ليس كل قائل يسلم ، ولا كل سامع ينصف ، ولا كل متوسط يصلح ، ولا كل قادم يفسح له فى المجلس عند القدوم [٢] .

— ١٢ —

وهو يسجع ، لكن سجعه ليس كثيرا ، وليس مطردا ، فهو لا يعانى على

---

(١) البصائر والذخائر ٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١

ترسله ، بل لا يقاربه أو يساويه حتى يسلكه فى عداد السجاعين ، إلا فى كتابه الإشارات الإلهية .

وقد كان يسجع فى تعبيره عن عاطفته ، وفى مواضع لا عاطفة فيها ، لأنه وجد فى الجمل المزدوجة والجمل المسجوعة نغما يطرب له ، وصياغة تتكفل لتعبيره القوة والقبول والذيوع .

وسجعه كله قصير الفقرات ، متناسب القِصَر ، مسوق فى مهارة ولباقة ، لا تشعر القارىء بأنه تعمده أو اصطنعه ، ولا شىء فيه من إهمال المعنى أو الطغيان عليه .

وإذا ما سجع عاد إلى الترسل وانطلق ، أو عاد إلى السجع ثم انطلق .

من سجعه قوله :

« أما السّلامى[1] فهو حلو الكلام ، مُتّسق النظام ، كأنما يَبْسِم عن ثغر الغمام . خفىّ السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس »[2] .

وقوله :

اللهم اكفنا من اللسان فلتته ، ومن الهوى فتنته ، ومن الشر خطرته ، ومن الرأى غلطته ، ومن الظن خَبْطته ، ومن الطبع سَوْرته ، ومن الأمر روعته ، ومن العدو سطوته .

وجنبنا معاندة الحق ، ومجانبة الصدق ، وشراسة الخُلُق ، ومذمة الخلق ،

---

(١) شاعر عربى من أهل العراق . مدح الصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٣٤

والقِحةَ بالعلم ، والبَهتَ بالجهل ، والاستعانة باللجاج ، والإخلاد إلى العاجلة ، حتى نوحدك بسرائر سليمة من الشرك ، ونقدس لك بألسنة نقية من الهُجْر ، ونتوجه إليك بقلوب صافية من الدغل ، ونعبدك عبادة بَرِيّة من الرياء ، خالصة باليقين ، ونستجيب لك فى كل سهل وعسير ، ونستريح إليك من كل قليل وكثير ، ونحتمل فيك الأذى من كل صغير وكبير(١).

ومن سجعه الملتزم المتصل على قافية واحدة قوله فى الإشارات الإلهية :

أنفاسى متحرقة بالحسرات ، ودموعى مترقرقة بين النعرات والزفرات ، وكبدى مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتى جارية على الرسوم والعادات ، وأحلامى عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينة بالسيئات ، مفتونة بالسوانح والخطرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات .

الجهات دونى مُنسَدّة ، والوجوه أمامى مسودّة ، إن قلت ، قيل : هذا زور وبهتان ، وإن أشرت ، قيل : هذا بور وعدوان ، وإن سكت ، قيل : هذا سهو ونسيان(٢) .

ومن ترسله قوله :

وقد أحصينا — ونحن جماعة فى الكَرْخ — أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البُدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة .

هذا سوى من كنا لا نَظْفَرُ به ، ولا نصل إليه، لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نَشِط فى وقت،

---

(١) المقابسات ١١٦ .

(٢) الإشارات الإلهية ٢١٤

أو تمَـل فى حال ، وخلع العِـذار فى هوًى قد حالفه وأضناه . وترنّم وأوقع ، وهز رأسه ، وصعّد أنفاسه ، وأطرب جُلاّسه ، واستكتمهم حاله ،وكشف عندهم حِجابه ، وادعى الثقة بهم ، والاستنامة إلى حِفاظهم(١) . »

— ١٣ —

وهو يميل كثيرا إلى التضادليزيد الفكرة قوة ووضوحا، لاليتلاعب باللفظ.

كقوله : أما ترى ضيعتى فى تحفظى ؟ أما ترى رقدتى فى تيقظى ؟ أما ترى غصتى فى إساغتى ؟

أما ترى ضلالى فى اهتدائى ؟ أماترى رشدى فى غيي ؟ أما ترى عيي فى بلاغتى؟ أما ترى ضعفى فى قوتى ؟ أما ترى عجزى فى قدرتى ؟ أما ترى غيبتى فى حضورى ؟(٢)

— ١٤ —

ولقد أكثر أبو حيان من إيراد الشعر والحكم والأمثال فى غضون كتابته، وإن كان لم يَحُلّ الشعر ويقبس معانيه وبعض ألفاظه ، كما فعل كثير من كتاب عصره ، بل كان يذكره منفصلا مستقلا ، لأن له صلة بالموضوع الذى يعرض له .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٨٣/٢
(٢) الإشارات الإلهية ١٠٤

موازنة
بين أبي حيان وكتاب عصره

كان القرن الرابع — كما قدمنا في وصف الحياة العلميـة والأدبية — غنيا بالـكتاب، على منازع شتى .

وإذا كان من العسير أن تطلق على نثرهم جميعا أوصاف عامة تستوعبه، وأن توجه إليه أحكام كلية تشمله، فإنه من المستطاع أن يوسم بعلامات تنطبق على جملته، وتصير كأنها خصائص لأكثره أو أغلبه .

وعلى هذا الأساس نوازن بين أبي حيان وكتاب عصره، موازنة قائمة على التشابه، ووجوه التخالف .

وجوه التشابه

— ١ —

طوّع الـكتاب النثر للتعبير عن المعاني العاطفية التي كانت مجالا للشعر وحده، كالمدح والهجاء والوصف، وكانت وسيلتهـم إلى ذلك تقسيم الجمل، والازدواج والسجع والخيال والمحسنات، حتى صار نثرهم شعرا منثورا .

وأبو حيان يشبههم في هذا، كما بينا في خصائصه الفـكرية والفنية .

— ٢ —

سجل بعضهم الصراع الجنسي بين العرب والشعوبية، والنزاع المذهبي بين أرباب النحل والمذاهب والآراء، والخلاف العلمي بين العلماء، كدفاع بديع الزمان

الهمذانى عن العرب ، ورده على الفرس ، ورد خصومه عليه ، وكالمناظرة بين البديع والخوارزمى التى سجلها البديع .

وقد جرى أبو حيان فى هذا المضمار جريا لم يُلحق فيه ، كما بينا فى تحليل كتبه ، وفى دراسة خصائصه الفكرية والفنية .

— ٣ —

بعض كتاب القرن الرابع أكثروا من الازدواج ، وراوحوا بينه وبين السجع ، كابن العميد والباقلانى والشريف الرضى .

وقد كان أبو حيان يستعمل الازدواج ، لكن استعماله له لم يطغَ على ترسله ، كما عرفنا فى أسلوبه .

— ٤ —

أكثروا من الجمل الدعائية ، وإن كان الجاحظ قد سبق إلى ذلك . كقول ابن العميد فى كتاب لعضد الدولة : « أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده » .

وقد أشبههم أبو حيان ، فأكثر من مثل هذا الدعاء ، كما مرّ بنا فى دراسة أسلوبه .

وجوه التخالف

— ١ —

امتاز أبو حيان من معاصريه الكتاب بثقافته الواسعة التى يسرت له أن يغذى أدبه بألوان من العلوم . فلم يكن أدبه مثل أدبهم تعبيرا صرفا عن عاطفته الفردية ، وإنما كان أدبه غنيا بثقافات شتى ، كما بينا فى تحليل كتبه ، وفى دراسة خصائصه .

— ٢ —

مال بعضهم إلى الفكاهة ، موضوعا ، وتعبيرا وطريقة ، كما فعل البديع فى المقامة المضيرية والمقامة الحلوانية[١] . وكالرسالة التى كتبها أبو الخطاب الصابى فى التندر بحَمَل أهداه إليه صديقه[٢] ، والرسالة التى عزى بها أبو إسحاق الصابى صديقا له فى ثور[٣] ، ورسالته فى التطفيل التى أنشأها على لسان طفيلى كان دائم الهبوط على مائدة معين الدولة بن بويه الديلمى ؛ استجابةً لاقتراح معين الدولة عليه أن ينشئها على نظام العهود الرسمية[٤] .

أما أبو حيان فكان نزر الفكاهة ، إذ ليس من موضوعاته موضوع واحد فكه ،

---

(١) مقامات بديع الزمان ١١٤ ، ٢٢٣

(٢) زهر الآداب ٢ / ٢٣١

(٣) زهر الأداب ٤ / ١٠٢

(٤) صبح الأعشى ١٤ / ٣٦٠

ولم يمزج بكتابته ضروربا من الفكاهة ، إلا بعض نوادر وملح ومجون كان يختم بها بعض لياليه وأسماره مع ابن سعدان ، وإلا مجونا واحدا افتتح به ليلة من لياليه . وحتى نوادره هنا ليست بارعة كلها ، وليست من البواعث القوية على الضحك .

وتعليل ذلك سهل ، لأن الرجل كان رجل جِدّ لا عبث ولهو ، وكان مشغولا برزقه وحياته كما عرفنا فى تاريخه ، وكان يعتقد أن العلم الجادّ هو سُلَّمه إلى الزُّلْفى والشهرة وعلو القدر ، لا الضحك والإضحاك . وفوق هذا كله ، كان مزاجه غير مُستَعِدٍّ للضحك والإضحاك ، كمزاج الجاحظ مثلا .

— ٣ —

لعل أول ما يسترعى النظر من خصائص النثر فى القرن الرابع الكلف بالسجع ، والتزام أكثر الكتاب له ، على أنه عماد فى الكتابة ، وضرورة من ضرورات الإجادة ، ودلالة على المهارة .

والسجع بهذه الصورة بِدعٌ فى النثر ، لأن الكتاب الذين سبقوا القرن الرابع لم يكونوا يَتَكَلَّفون به هذا التَّكَلُّف ، أو يلتزمونه ذاك الالتزام .

وقد تعدى الولوع بالسجع النثر الأدبى إلى لغة التأليف ، كما نرى فى (يتيمة الدهر) للثعالبى ، وفى (اليمينى) الذى ألفه العتبى فى تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى .

على أن كتاب القرن الرابع كانوا فى سجعهم على طرائق ثلاث : منهم من

كان يستعمله . ولا يكاد يخل به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى ، وأبو الفرج المعروف بالببغاء .

ومنهم من كان يستعمله كثيرا ، ويتركه حينا ، وهو أبو الفضل ابن العميد .

وآخرون كانوا يستعملونه مرة ، ويرفضونه أخرى ، على حسب ما يحسون من التيسير والسهولة ، والإكراه والتكلف[1] .

ومن أشهر السجاعين فى القرن الرابع بديع الزمان الهمذانى والصاحب ابن عباد وابن نباتة والخوارزمى والثعالبى والصابى .

أما أبو حيان فقد عرفناه كثير الترسل ، قليل السجع ، وعرفناه لايلبث أن يسجع حتى يتحرر وينطلق ، إلا فى كتابه الإشارات الإلهية .

— ٤ —

وثمة طائفة لم تتكلف بالسجع ، ولا بالازدواج ، وإنما كانت تعبر فى تحرر وترسل ، مثل المرزبانى والأصفهانى وابن مسكويه وأحمد بن يوسف .

وقد كان أبو حيان من هذه الطائفة ، وإن كان أحرص منها على العناية بالأسلوب ورنينه ، وتحليته ببعض السجع والازدواج .

---

(١) ابن خفاجة فى مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ١٦ وقد ذهب إلى أن ابن العميد كان يترك السجع ويتجنبه ، ولكن رسائله تنقض ذلك ، فلم يكن مترسلا كما زعم ابن خفاجة .

— ٥ —

والغالب على جمهرة الكتاب أن يحلوا نثرهم الأدبى بألوان من الجناس والطباق ، كقول ابن العميد فى الرسالة التى بعثها على لسان ركن الدولة البويهى إلى الثائر ابن بلكا ونداد خورشيد .

كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك ، فإنك تُدِل بسابق حرمة ، وتَمُتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويسحق كل ما يُرْعَى لك(١) ...

وقول بديع الزمان فى المقامة الشيرازية :

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قَفَلْت من اليمن ، وهمتُ بالوطن ، ضَمّ إلينا رفيقٌ رَحْله ، فترافقنا ثلاثة أيام حتى جذبنى نَجْد(٢) ، والتقمه وَهْد(٣) ، فصَعَّدْتُ وصَوَّب(٤) ، وشرقت وغرب . فو الله لقد تركنى فراقه ، وأنا أشتاقه ، وغادرنى بَعْدَه أقاسى بُعْدَه ، وكنت فارقته ذا شارة وجمال وهيئة وكمال(٥) . . .

وقول الخوارزمى فى رسالة إلى نائب الوزير ابن عباد :

---

(١) يتيمة الدهر ٣/١٤٥

(٢) نجد : مرتفع من الأرض

(٣) وهدا : منخفض من الأرض

(٤) صعدت : سرت مرتفعا . صوب : سار منحدرا أو فى اعتدال

(٥) مقامات بديع الزمان ٢١٩

« كتبت إلى الأستاذ معاتبا مرة ، ومستعتبا كرة ، فما وجدت للمتاب إعتابا ، ولا قرأت عن الكتاب جوابا . وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لاتضره ، وتنفعنى ؟ وعن تواضع لايضعه ، ويرفعنى » ؟

ولكن أبا حيان كان مُقِلاًّ من الجناس والطباق ، حتى ليكاد يَخْفَى على القارىء مافى كتابته منهما ، وذلك لمهارته ، ولأنه لم يخضع المعنى لهما ، ولم يتكلفهما ، بل كان الجناس أو الطباق فى نثره عملا تعبيريا مصدره النفس لا العقل والصنعة .

فمن جناسه قوله :

« ومَنْ إذا وقف إلى جانبي أسْدَرنى بصُنانه ، وأسكرنى بنَتَنه »[1]
وقوله : قد تفلَّلَتْ صَفاتى ، واضمحلت صِفاتى ، وفقدت شهواتى ولذاتى ، ومنيت بموت أحبتى ولداتى »[2] .

وقوله :

فتراه عند هذا الحَذَر وأشباهه يتلوى ويتبسم ، ويطير فَرَحا ويتقسم ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ويتمايل[3] .

ومن طباقه قوله :

« وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَسلوى شِدَّته ، ويبتلع ريقه ، ويَرُدُّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتَمَنِّع ، ويغضب فى عَرَض الرضا ، ويَرْضى فى لبوس الغضب »[4] .

---

(١) الصداقة والصديق ٦
(٢) الإشارات الإلهية ٩٣
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٩
(٤) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٩

وقوله :

من لم ير أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ، وأن رأى المجرب البصير ، مقدم على رأى الغُمر الغرير ، فقد خسر حظه فى العاجل ، ولعله أيضاً يخسر حظه فى الآجل »[١] .

— ٦ —

تغالوا فى عبارات التعظيم والتبجيل والتفخيم ، وخاصة فى كتبهم للملوك والرؤساء وذوى السلطان ، وكنوا عن أسمائهم وألقابهم ، صونا لها من التصريح بها ، ورسموا لكل طبقة نعتا ودعاء .

أما أبو حيان فلم يفعل ذلك ، ولدينا مسامراته التى سامر بها الوزير ابن سعدان ، وليس فيها هذا الإغراق فى الإعظام والإجلال . بل إنه يحدثنا عن طلبه من ابن سعدان أن يخاطبه بالكاف والتاء ، للتخلص من ضيق الكناية والتعريض ، وليتحدث فى غير تكلف أو تهيب أو حذر ، ويخبرنا أن ابن سعدان أجابه إلى طلبه[٢] .

وقد عرفناه فى مجلس ابن عباد جريئا فى المقال ، غير خبير بمجالسة الأمراء، ومنادمة الكبراء[٣] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١ /٢٠

(٣) راجع صلته بابن عباد فى الجزء الأول

مـــوازنة

بين أبي حيان والجاحظ

١ — كان أبو حيان معجبا بالجاحظ أيما إعجاب ، وكان — كما حدث — حفيا بكتبه ، معجبا بطريقته[1] .

وقد أرجع عجز أبي الفضل بن العميد عن إدراكه للجاحظ ، إلى أن الجاحظ موهوب ، وأنه لا يجارى ، في قوله :

سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوابة يقول : أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من نفسه .

ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مُدَبَّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق — الميل إلى الكتابة — والمنافسة والبلوغ ؟

وهذه مفاتح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد[2] .

وقد عرفنا أنه ألف كتابا كاملا سماه تقريظ الجاحظ[3] .

٢ — وهذا الإعجاب دفعه إلى محاكاة الجاحظ كثيرا ، فصار يشبهه إلى حد بعيد ، وإن كان لم يشبهه تمام الشبه ، لأن له شخصيته ومواهبه وظروفه . وسنوازن بينهما موازنة مفصلة تبين أوجه التشابه وأوجه التخالف .

---

(١) البصائر والذخائر ٥ والإمتاع والمؤانسة ١/٥ ومعجم الأدباء ١٦/٩٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٦

(٣) معجم الأدباء ٣/٢٧ و١٦/٩٥ — ١٠٢

وقبل أن نعرض هذه الموازنة ، نذكر أن الأستاذ أحمد أمين فضل أبا حيان على الجاحظ فى ناحيتين : جزالة اللفظ ، وسعة العلم ، وفضل الجاحظ على أبى حيان فى طرافة التصوير وجمال العرض ، فى قوله :

« ولئن قالوا عن أبى حيان إنه هو الجاحظ الثانى ، ففى رأيى أن الجاحظ — وإن كان أكثر تشعبا وأكثر انطلاقا — فأبو حيان أجزل لفظا ، وأوسع علما ، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى ، وفى القرن الثانى بدأت نشأة العلوم ، وأبو حيان مسجل القرن الرابع ، وقد نضجت العلوم ، وشتان بين علم ناشىء ، وعلم ناضج .

قد يمتاز الجاحظ بحسن التصوير ، وحسن العرض ، والقدرة على خلق شىء من لاشىء . أما أبو حيان فأوسع أفقا ، وأغزر مادة .

إن كان الجاحظ معتزليا فهو معتزلى فقط ، أما أبو حيان فقد كان نحويا ، وكان فيلسوفا ، وكان أديبا ، وكان متصوفا .

بدأ الجاحظ والعلم فى مستهله فأعجب الناس وأطرفهم ، وجاء أبو حيان والعلم على أتمه فروى لهم ما وصل إليه .

وليس من شك فى أن مجهود العالم الإسلامى فى قرنين ونصف فى كل فروع العلم كان مجهودا هائلا ، نهل منه أبو حيان ، ولم ينهل منه الجاحظ .

فأبو حيان فى الحقيقة يمثل العلم العربى إلى أين وصل ؟

والجاحظ يمثله كيف بدأ ؟

ولكن حظ الجاحظ كان أحسن من حظ أبى حيان ، فكبر ومجد ،

وأبو حيان نُسِى وأُهمل ، فما أحرانا ألا نكون مع الزمان عليه ، أو ألا نقلد كثيرا من الناس فى إهماله .

وفرق آخر هو أن الجاحظ لما حَسُن حظه ضحك ، فاشتهر بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة .

وأبو حيان لما ساء حظه بكى ، والناس عادة يضحكون مع الضاحك ، ويهربون من الباكى ، فقد أكثر أبو حيان من الشكوى حتى مل منه مسكويه وقرّعه[(١)].

٣ — وسنبين فى موازنتنا بين الرجلين أن الأستاذ أحمد أمين لم يفصل القول فيما ذهب إليه .

أما هذه الموازنة فقائمة على ناحيتين : ناحية التشابه ، وناحية التخالف .

وجوه التشابه

— ١ —

كلاهما سجّل معارف عصره ، ونقل ما كان قبله ، مما قرأ أو سمع أو روى .

وكلاهما عبر عن معانى غيره بأسلوبه فى الأكثر ، فالمعانى لغيره ، والقصة لسواه ، والخبر قديم أو معروف ، لكنه يصوغه صياغة جديدة ، تشرق فيها خصائصه ، وتلتمع ألوانه ، فيصير جديدا أو كالجديد ، ويصير حريًّا بأن ينسب إليه .

وكل منهما استقى من ينابيع الثقافة المتنوعة فى عصره ، عربية ودينية ومترجمة

---

(١) مقدمة البصائر والذخائر

عن اليونان والفرس والهند ، على قدر ماسمحت ظروفه ، واتسع إمكانه ، ويَسَّر جهده .

ولكن أبا حيان كان أرحب ميدانا من الجاحظ ، لأنه انتفع بما جدّ بعد الجاحظ ، فقد توفى الجاحظ سنة ٢٥٥ وتوفى أبو حيان سنة ٤١٤ هـ .

وفى هذه الفترة التى فَصَلَتْ بين وفاة الجاحظ ووفاة أبى حيان كان العرب قد ازدادوا إقبالا على الترجمة من الأمم المختلفة ، وأعادوا بعض ما ترجم أسلافهم من قبل ؛ وصححوه . وكانت خطواتهم فى ميادين العلم والأدب قد تزاحمت وتلاحقت واتسع مداها .

وهذا هو السبب فى أن أبا حيان أكثر من الجاحظ ذكرا للعلماء والفلاسفة ، وأكثر نقلا عن فلاسفة اليونان بنوع خاص ، وأشد ولوعا بالبحث والاستقصاء ، كما بينا فى تحليل كتبه ، وكما سنبين فى الختام .

— ٢ —

كلاهما صبغ الأدب بالثقافة ، وعبر عن مسائل دقيقة فى الفلسفة والنفس والكلام وغيرها تعبيرا أدبيا كساها حلة من الجمال .

فالجاحظ تكلم فى الحيوان مثلا ، وكتب فيه كتابا كاملا ، مزج فيه العلم بالأدب .

وأبو حيان تكلم فى أصناف الحيوان وطباعها ، وكان كلامه مزيجا من العلم ومن روعة التعبير ، وإن كان أقل من الجاحظ استطرادا إلى الشعر والملح .

كقول الجاحظ :

والهدهد منتن البدن ، وإن لم تجده ملطخا بشىء من العذرة ، لأنه يبنى

بيته ، ويصنع أفحوصه من الزبل ، وليس اقتياته منه إلا على قدر رغبته وحاجته في ألا يتخذ بيتا ولا أفحوصا إلا منه ، فخامره ذلك النتن ، فملق ببدنه ، وجرى في أعراق أبويه ، إذ كان هذا الصنيع عاما في جنسه .

وتعترى هذه الشهوة الذبان ، حتى إنها لو رأت عسلا وقذرا لكانت إلى القذر أسرع .

قال أبو نواس في هجاء جعفر بن يحيي البرمكي :

قفاً خلف وجهٍ قد أطيل كأنه قفا مالكٍ يقضي الهمومَ على بَثقِ

وأعظمُ زَهْوا من ذُباب على خِرا وأبخل من كلب عقور على عَرْق[1]

وقوله :

السِّنَّوْرُ يعرف ربة المنزل ، ويألف فرخَ الحمام ، ويعابث فراريج الدار ، إن سرِق ورُبط شهرا عاد عند انفلاته ، وانحلال رباطه .

والهرة تعرف ولدها وإن صار مثلها ، وإن أُطعِمت شيئا حملته إليه ، وآثرته به . وربما أُلقي إليها الشيء فتدنو لتأكله ، ويقبل ولدها فتمسك عنه ، وتَرَكته له ، وربما طُرح لها الشيء وولدها غائب عنها — ولها ضروب من النغم ، وأشكال من الصياح — فتصيح ضربا من الصياح يعرف أهل الدار أنه صياح الدعاء لا غير ذلك . ويقال أبرُّ من هرة[2] .

---

(١) الحيوان ١/٢٣٨ ثبق : إسراع
العرق : العظم بلحمه .
(٢) الحيوان ٢/٢٦٣

وقول أبي حيان في الإمتاع والمؤانسة[1] :

« إن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صَفْوُ الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كَدَرُ النوع الذي هو الإنسان ، والإنسان صَفْوُ الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صَفْوا ومُصاصا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلق وخلقان وأكثر ... كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الذئب ، والتحرز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل ، والحذر الذي في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تَمَثُّلا بصاحب المقدمة ... ولهذا قال بعض الحكماء : خذ من الخنزير بكوره في الحوائج ، ومن الكلب نصحه لأهله ، ومن الهرة لُطف نَفَسها عند المسألة .

وقالت الترك : ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتَحَنُّن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، ورَوَغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكُرْكيّ ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ...

الكلبة تحمل وتبقى ستين يوما ويوما ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يوما ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا ترَبِّي ، ولا يبقى لها ولد ...

كل ما كان من البيض مستطيلا محدَّد الطرف فهو يفرخ الإناث ، وما كان مستديرا عريض الأطراف يفرخ الذكور ...

---

(١) ١/١٤٣ — ١٩٨

الطاوس يعيش خمسا وعشرين سنة ، وفى هذه المدة تنتهى ألوان ريشه .
ويحضن بيضه ثلاثين يوما .

قيل : وربما أكثر قليلا . ويبيض فى كل سنة مرة واحدة ، وعدد بيضه اثنتا عشرة بيضة . ويلقى ريشه فى زمن الخريف وبعده قليلا ، وذلك حين يلقى الشجر ورقه ، فإذا بدا أول الشجر ، وظهرت فروعه ، ونبت ورقه ، بدأ ريشه ينبت ...

إناث الكلاب تَطْمَث فى كل سبعة أيام ، وتبول جالسة ، ومنها ما ترفع رجلها عند البول .

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر ، وبعضها فى ستة أشهر ...

— ٣ —

كلاهما بصير بمدلول الكلمة ، وجرسها ، وموضعها الملائم لها ، اعتمادا على حسه اللغوى ، وذوقه المرهف ، وتمرسه بالتعبير ، وعلى العلم بدقائق اللغة ، وما يقتضيه المعنى والمقام .

وقد مثلنا لهذا من كتابة أبى حيان فى دراسة خصائصه الفنية والفكرية

أما من كتابة الجاحظ فقوله فى وصف قاضى البصرة عبد الله بن سوار :

كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما قط ، ولا زِمِّيتا ولا ركينا ولا وقورا حليما ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك .

كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيحتبى ولا يتكىء ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل

حبوته ، ولا يحول رجلا على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك إذا بقى عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء وينصرف .

فالحق يقال : لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب .

كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم[1] .

فانظر كيف وصف القاضى بكلمات دقيقة دالة وصفا مصورا لسكناته وهيئته وجلوسه .

— ٤ —

كلاهما حريص على هندسة الجمل وموسيقاها ، وتوازن الجمل بعضها مع بعض .

فهما معاً يكثران من الترسل ، لكن ترسلهما عذب ، لأن فيه تقسيما بين الجمل واتساقا يجمل وقعها لطيفا على السمع .

وهما مما يكثران من الازدواج ، ويجنحان قليلا إلى السجع . لكن ازدواجهما وسجعهما يبدو طبيعيا لا معاناة فى اجتلابه ، ولا إهمال للمعنى فى طلابه .

---

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣

وقد مثلنا للترسل والازدواج والسجع عند أبي حيان في خصائصه .

أما سجع الجاحظ فمثل قوله : « الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَنْهك الجسد، ويفسد الأَوَد ، علاجه عسِر ، وصاحبه ضجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : دب إليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . . . وهو قاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرقة بين القرناء ، ومُلَقِّح الشر بين الخلطاء »[1] .

ومن ازدواج الجاحظ قوله :

عبتَ الكتاب ، ونعم الذخر والعقدة ، ونعم الجليس والعُدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتَغَل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حُشِي ظرفا ، وإناء شحُن مزاحا وجِدًّا »[2] .

ومن ترسله المزوج بالسجع والازدواج قوله :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبينك وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينيك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة »[3] .

---

(١) رسالة الحاسد والمحسود ٢ — ٣ من مجموعة رسائل الجاحظ
(٢) الحيوان ١/٣٨
(٣) الحيوان ١/٣

— ٥ —

وهما مما يجنحان إلى الإطناب .

ووسيلتهما إلى الإطناب التعبير بكلمات مترادفة ، أو ترديد بعض الكلمات والجمل ، أو تشقيق معان عدة من معنى ، أو تكرير المعنى الواحد فى عبارات مختلفة تخيل إلى القارىء أن لكل منها معنى خاصا ، فإذا تدبر وجد المعنى واحدا أو كالواحد .

وسبب هذه النزعة عندهما حرصهما على التوضيح ، ورغبتهما فى التوكيد ، وقدرتهما على التوليد والبسط ، وثراؤهما من اللغة .

ومن أمثلته عند الجاحظ قوله :

ولو أن رجلا جلس على بَيْدر — كُدْس — تمر فائق ، وعلى كُدْس كمثرى منعوت ، وعلى مائة قِنْو موز موصوف ، لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه ، ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أتى بذلك فى طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف »[١] .

ومن أمثلة توليد المعانى عند الجاحظ قوله فى تهكمه بأحمد بن الوهاب :

فأنت إذ عرفت ذلك استرحت منا ، ورجوتُ أن نستريح منك . وكيف يعرف السبب من يجهل المسبِّب ؟ وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ؟

وكيف يعرف الحجة من الشبهة ، والغدر من الحيلة ، والواجب من الممكن ، والمعقول من الموهوم ، والمحال من الصحيح ، والأسرار المجهولة من ذوات

(١) البخلاء ١ / ١٧٣

الدلائل الخفية ، وما يعلم مما لايعلم ، وما يعلم باللفظ دون الإشارة ، وما إلا بالإشارة دون اللفظ ، وما لايعلم معقولا ولايعلم مكينا ، ممايعلم مكينا و معتقدا ، وما المستغلق الذى لايجوز أن يفارقه استغلاقه ، والمستبهم لايفارقه استبهامه[1] . . .

ومن أمثلته عند أبى حيان — على ما سبق فى خصائصه — قوله فى إلى ابن العميد .

اللهم هيىء لى من أمرى رشدا ، ووفقنى لمرضاتك أبدا ، ولا تجعل الـ علىّ رَصَدا .

أقول — وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الـ وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما يد الشكر ، وخير الشكر مابدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتف وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق — لما رأيت شبابى هرما بالفقر ، وفقرى بالقناعة ، وقناعتى عجزا عن أهل التحصيل ، عدلت إلى الزمان أطلب مكانى به ، وموضعى منه ، فرأيت طرفه نابيا ، وعنانه عن رضاى منثنيا[2] . .

— ٦ —

ويتشابه الكاتبان الكبيران فى الإكثار من اسم التفضيل إكثارا يستـ النظر ، سواء أكانت هناك موازنة ومفاضلة أم لم تكن .

كقول الجاحظ فى صفحة واحدة . « فمن أسوأ حالا ، وأضر مكانا ، و

(١) رسالة التربيع والتدوير ٨٦ من مجموعة رسائل الجاحظ

(٢) معجم الأدباء ١٥/٣٧

من الحزم ، ممن كان حرا مالـكا لنفسه ، فصير نفسه عبدا مملوكا لغيره . . . وكلما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهـم أدوم ... ولو أن أوزن الناس حلما ملك لسانه ... ما قدر على أن يملك لحظ عينه »[١].

وكذلك فعل في رسالته فخر السودان على البيضان في صفحة واحدة[٢] ، ورسالة المعاد والمعاش[٣] في نصف صفحة .

وشبيه بهذا قول أبي حيان :

ولولا تَكَلُّف النفس بالعلم ، ومحبتها للفائدة ، لـكان الإضراب عنها أَذْهَبَ عن المرض ، وأصْوَنَ للقَدْر ، وأبعد من استدعاء اللائمة ، ممن لعله لو أتى بهذا المقدار لـكان عندي عظيم المنة حقيقا بالشكر والمحمدة[٤].

وقوله : ما أعرف إنسانا أشـكر لك ، وأحسن ثناء عليك ، وأذهب في طريق العبودية مملك ، منه[٥]. وقوله :

أبو سعيد أجمعُ لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل في كل باب ، وأخرجُ من كل طريق ، وألزم للجادّة الوسطى في الدين والخلق ، وأروى في الحديث ، وأقضى في الأحكام ، وأفقه في الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة ، وأظهر أثرا في المقتبسة[٦] ...

---

(١) رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ٤٤

(٢) صفحة ٦٤

(٣) صفحة ١٣

(٤) المقابسات ١٢٤

(٥) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٩

(٦) الإمتاع والمؤانسة ١/١٢٩

وقوله :

فهمتُ جميع ما قلته لى بالأمس فهما بليغا . . . وأنا أعيده هاهنا بالقلم ، حتى يكون اعترافى به أرسى وأثْبَتَ ، وشهادتى على نفسى أقوى وأوكد ، ونكولى عنه أبعد وأصعب ، وحكمك به لى وعلىّ أمضى وأنفذ[1] .

— ٧ —

ويتشابهان فى المبالغات الافتراضية فى مقام التهويل ، أو فى مقام التهوين .

كقول الجاحظ :

والله لو كنت ابتلعت مرار بابك ، وأبطلت ثمر الباطل ، ورددت القطائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة أبى رملة ، ورددت شطاط خلقك إلى جعودة أبى حثة ، وكنت أول من سن بيع الرجال فى النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحولت إليك عقل أبى دينار ، وطبعت على بيان مانويه ، وأعنت على موت المتصم ، وغضبت لمصرع الأمشين ، واستجبت للديك الأفرق ... لكان ما تركبنى به سَرَفا ، ولكنت فى هذا الباب متعديا » .

وقول أبى حيان فى التعجب من ابن عباد وسخطه :

« حتى كأنى طعنت فى القرآن ، أو رميت الكعبة بخرق الحيض ، أو عقرت ناقة صالح ، أو قلت كان النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان عباد معلم صبيان » .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٣

— ٨ —

على أنهما يتشابهان فى مظاهر أخرى ، كالإكثار من الجمل الدعائية ، واستعمال الجمل المعترضة ، كما سبق فى خصائص أبى حيان .

وكقول الجاحظ : تولاك الله بحفظه ،وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

وقوله : ذكرت — حفظك الله — أنك قرأت كتابى[1].

وجوه الاختلاف

وإذا كان أبو حيان قد أعجب بالجاحظ ، وقرظه ، وحاكاه عامدا أو غير عامد، فإنه لم يكن صورة مكرورة من الجاحظ ، لأن له مزاجه الخاص ، ونزعاته المستقلة ، وخصائصه المنفردة ، فلا بد أن تظهر فى كتابته ، ولأن للجاحظ جوانبه الخاصة التى انفرد بها ، وكانت من آثار مزاجه وملابساته .

ومن هنا اختلف الكاتبان الكبيران فى أمور عدة :

— ١ —

أبو حيان أبرع من الجاحظ فى تسجيل المناظرات والمحاورات بقلمه وفنه ،

---

(١) البخلاء ١ / ١٥

فطالما نسج مجالس المناظرة نسجا تفرد به ، ونقل إلينا صورتها وحقيقتها ، مستعينا بقدرته على التصوير ، وبقوة حافظته ، وبانطلاق خياله ، وبتعدد الشخصيات . وقد صاغ ذلك بقلمه ، غير متعال إذا تحدث بلسان أديب ، وغير نازل إذا تحدث بلسان غير أديب .

أما الجاحظ فقد برع فى تصوير البخلاء ، والسخرية منهم . وهو إلى ذلك يراوح فى أسلوبه بين حديثه على لسان الخاصة وحديثه على لسان العامة . ولهذا أوصى بأن تنقل مُلح العامة وأشباههم والأعراب وغيرهم بلغتها الأولى وإن خالفت الإعراب .

— ٢ —

الفكاهة ميدان رحب من ميادين الجاحظ ، اشتهر بها ، وبرع فيها .

ويتصل بالفكاهة ألوان أخر قريبة منها كالتهكم والسخرية(١) .

وترجع براعة الجاحظ فى الفكاهة إلى نفسه المرحة ، ومزاجه الضاحك ، ومقدرته على التعبير والتلوين ، وقدرته على النقد ، وتجسيم الصغير وتصغير الجسيم ،

وهذه النزعة جلية فى كتابه البخلاء ، وفى رسالة التربيع والتدوير .

ومن تهكم الجاحظ بنفسه رغبةً فى الفكاهة والتمكيه ، وصفه لمعركة بينه وبين الذباب ، قال : فأما الذى أصابنى من الذِّبان فإنى خرجت أمشى فى (المبارك) أريد دَيْر الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فمررت فى عشب أشِب — ملتف — ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفى ، فطردته ،

---

(١) راجع كتابى (الفكاهة فى الأدب) الجزء الأول والثانى

فلم أقدر . فتحول إلى عيني ، فطردته . فسار إلى مُوُق عيني — طرفها الذي يلي الأنف — ، فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبّي عن عيني .

— وللذبان السكلأ والرياض والغياض وقْعٌ ليس لغيرها — ثم عاد إليّ فعدت إليه ، ثم عاد إليّ ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمي ، فذببت به عن وجهي . ثم عاد ، وأنا في ذلك أُخبُّ السير ، أؤمل بسرعتي انقطاعه عني .

فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي — لباس يشبه العباءة — فذببت به عني بدل كمي . فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العَدْوَ ، فعَدَوْتُ منه شوطا تاما لم أتسكلف مثله منذ كنت صبيا .

فتلقاني الأندلسي ، فقال لي : مالك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع للذبان ، عليّ فيه سلطان . فضحك حتى جلس ، وانقطع الذبان عني ، وما صدقت بانقطاعه ، حتى تباعد جدا[1].

أما أبو حيان فلم يكن من رجال هذا الميدان ، لأن حياته كانت ملأى بالتزمّت والعبوس والتصوف والحنق ، ولأنه كان أقل من الجاحظ قدرة على التصوير الساخر اللاذع .

ولم أجد له من هذا الضرب إلا بعض ملح ومجون كان يختم بها بعض أسماره مع ابن سعدان ، وألوانا من المجون الصّراح سامره بها في إحدى لياليه .

على أن الملح التي ذكرها مطبوعة بطابع الفتور ، فلا تبعث على الضحك كما تبعث ملح الجاحظ ، وكما تضحك الصور التي رسمها للبخلاء بقلمه ، أو صور بها بعض الأشخاص ، أو صور بها نفسه .

(١) الحيوان ٣/٣٤٦

وإذا كان أبو حيان قد هجا الصاحب ابن عباد وتهكم به ، فإن تهكمه كان ألصق بالهجاء الصريح المر ، وأقرب إليه ، من التعريض والمواربة والنيل المستور وهذه حادثة من حوادث أبي حيان ، ذكرها بقلمه ، ولو أن الجاحظ هو الذى تناولها لشقق منها ألوانا من الدعابة والسخرية .

قال أبو حيان فى كتاب المحاضرات :

قصدت أنا والنصيبي رجلا من أبناء النعم ، والموصوفين بالكرم ، لا يرد سائليه ، ولا يُخَيِّب آمليه ، والألسن متفقة على جوده وتَطَوُّله ، والعيون شاخصة إلى عطاياه وفضله ، له فى السُّنة مبارٌّ كثيرة على أهل العلم وأهل البيوتات ، ومن قعد به الزمان ، وجفاه الإخوان ، فلم نصادفه فى منزله .

وقصدناه ثانيا ، فمُنِعنا من الدخول إليه .

وقصدناه ثالثا فذُكر أنه ركب .

وقصدناه رابعا ، فقيل هو فى الحمام .

وقصدناه خامسا ، فقيل : هو نائم .

وقصدناه سادسا ، فقيل : عنده صاحب البريد ، وهو مشغول معه بمُهم .

وقصدناه سابعا ، فذُكر أنه رسم ألا يؤذن لأحد .

وقصدناه ثامنا ، فذكر أنه يأكل ، ولا يجوز الدخول إليه بوجه ولا سبب .

وقصدناه تاسعا ، فذُكر أن أحد أولاده سقط من الدرجة ، وهو مشغول به عند رأسه ما يفارقه .

وقصدناه العاشر ، فذكر أنه مستعد لشرب الدواء .

وقصدناه الحادي عشر ، فذكر أنه تناول الدواء من يومين ، وما عمل عملا ، وقد قوّاه اليوم بما يحرك الطبيعة .

وقصدناه الثانى عشر ، فقيل : إلى الآن كان جالسا ، ونهض فى هذه الساعة ، ودخل إلى الحجرة .

وقصدناه الثالث عشر ، فقيل : دُعى إلى الدار لمهم .

وقصدناه الرابع عشر ، فألفيناه فى الطريق يمضى إلى دار الإمارة .

وقصدناه الخامس عشر ، فَسَهُل لنا الإذن .

ودخلنا فى غمار الناس ، والناس على طبقاتهم جلوس ، وجماعةٌ قيام يرتبون الناس ، ويَخدُمونهم ، وقد اتفق له عزاء ، وشُغِل بغيرنا ، وبقينا فى سورة من احتقان البول والجوع والعطش ، وما أقِمنا فى جملة من يُقام .

فقال لى النصيبى : هذا اليومُ الذى قد ظفرنا به ، وتمكنا من دخول داره . صار عظيم المصيبة علينا . ليس لنا ، إلا مهاجرة بابه ، والإعراض عنه ، وقمع النفس الدنية بالطمع فى غيره .

فقلت له : قد تعبنا وتبذّلنا على بابه ، والأسبابُ التى قد اتفقتْ فمنعتْ من رؤيته كانت عذرا واضحا ، ويتّفق مثلُ هذا . فإذا انقضت أيام التعزية قصدناه ، وربما نلنا من جهته ما نأمله .

فقصدناه بعد ذلك أكثر من عشرين مرة ، وقلما اتفق فيها رؤيته وخطابه ، حتى مَلّ النصيبى ، فقال : لو علمت أن داره الفردوس ،

والحصولَ عنده الخلودُ فيها ، وكلامه رضا الله ، تعالى وفوزُ الأبد ، لما قصدته بعد ذلك .

وأنشأ يقول :

طلبُ الكريم ندًى بدِ المنكود كالغيث يُستنشق من الجلمود
فافزع إلى عز الفراغ ولُذْ به إن السؤال يريد وجهَ حديد

فأجبته أنا وعيناى بالدموع تترقرق ، لما بان لى من حُرْفتى ، ونُبُوِّ الدهر بى ، وضياع سعيى ، وخيبة أملى ، فى كل من أرتجيه لمِلمٍّ أو مُهِم ، أو حادثة أو نائبة :

دنيا دنت من عاجز وتباعدت عن كل ذى لبٍّ له خطرُ
سلِمَتْ على أربابها حتى إذا وصلتْ إلىَّ أصابها الحَصَرُ[1]

— ٣ —

سجل الجاحظ كثيرا من معارف عصره ، ودون أبو حيان كثيرا من علوم عصره . لكن العلوم كانت فى عصر أبى حيان أكثر سعة وتنوعا .

ومن هنا جاء أدب أبى حيان أغزر ثقافة .

— ٤ —

الجاحظ قدير على الجدل ، وإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، وتزيين القبيح ، وتقبيح الحسن ، بما يستخدم من مقدمات منطقية ، وأدلة خطابية ، وتمويه ماهر ، فى تأييد دعوى ، أو إثبات قضية ، أو نقض فكرة .

---

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٤٩

لهذا كان الجدال من خصائصه ، وكان قديرا على التحول ، قديرا على التنقل .

ومن هنا كان كثيرا ما يدافع عن آراء لايدين بها ثم ينقضها ، ولهذا كثر تناقضه .

فهو يؤيد العثمانية على الرافضة ، ثم يؤيد الزيدية على العثمانية وعلى أهل السنة ، ويفضل عليا مرة ، ويؤخره مرة .

وهو — في غير السياسة — يفضل السودان على البيض ، ويمدح الكتاب[1] ، ويذمهم[2] وهكذا .

أما أبو حيان فكان كاتبا ذا عقيدة ، وكان لايحسن من الجدل ما أحسن الجاحظ ، ولم يزج بقلمه فى خصومات سياسية ، ولم يمدح شيئاً ويذمه فى الوقت نفسه .

وإذا كان قد مدح ابن العميد أولا ثم هجاه ، ومدح مسكويه ثم ذمه ، كما قلنا فى أخلاقه وفى صلاته ، فإن هذا ضرب آخر غير ما عرفنا عند الجاحظ . فأبو حيان رضى فمدح ، وغضب فذم ، أو رضى فقال خير ما عرف ، وسخط فقال شر ما عرف . أما الجاحظ فقد مدح وذم حيث لارضا ولا سخط ، وإنما هو نوع من افتنانه وسيطرة الجدل على نفسه ، كمدحه العروض وذمه ، ومدحه جمع الكتب فى مجلدات ، وذمه لجمعها فى مجلدات[3] .

---

(١) البيان والتبيين ٤ /٢٤

(٢) رسالة ذم الكتاب ٤٤

(٣) رسالة الجد والهزل

— ٥ —

الجاحظ ، فى أكثر كتبه — مكثر من الاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال ، ومكثر من الطرائف الأدبية بعامة .

وأبو حيان — فى أكثر كتبه — مُقِلٌّ من هذا ، ولم يكثر إلا فى كتاب الصداقة والصديق .

ولعل سبب ذلك أن الجاحظ كان مشربا حُبَّ الأدب أولا والعلم ثانيا ، واستطاع أن يزاوج بينهما ، أما أبو حيان فكان أجنح الى العلم منه إلى الأدب .

وربما كان سبب ذلك أيضاً أن الجاحظ كان شديد الميل إلى الاستطراد والتدويع كما قدمنا ، أما أبو حيان فلم يكن الاستطراد سمة من سمات كتابته .

وهذا واضح فى كتبهما جميعا .

— ٦ —

والجاحظ كلِفٌ بالاستطراد ، يخرج من فكرة إلى أخرى ، ومن موضوع إلى موضوع أو موضوعات ، ثم يعود إلى الأول بعد قليل أو كثير من السطور أو الصفحات ، وهذا لوفرة علمه ، ورغبته فى أن يفيد قارئه ، ويجدد نشاطه — وإن كان هذا عيبا فى التأليف ، لأنه ضرب من الخلط والتهويش وتقطيع الأفكار ..

أما أبو حيان فلم يكن يستطرد هذا الاستطراد أو شبهه ، وإنما كان ينساق فى الموضوع الواحد أو الفكرة الواحدة حتى يفرغ منها .

— ٧ —

إنتاج الجاحظ أكثر كَمًّا ، وأضخم قَدْراً ، وأفسحُ دائرة ، وأعظم تنوعا من إنتاج أبي حيان ، لأن للجاحظ نحو ٣٦٠ [١] كتابا ورسالة ، وقد أثبت منها ياقوت ١٢٨ [٢] ، بعضهامطبوع فى مجلدات كالبيان والتبيين ،والحيوان،والبخلاء، وبعضها رسائل طوال أو قصار .

أما أبو حيان فكان إنتاجه أقل ، وهو إذا قيس بإنتاج الجاحظ لايساويه ولا يدانيه .

ولقد كان المتوقع نقيض هذا، لأن عصر أبي حيان كان أعظم ملاءمةللانتاج، لكن حياة كل من الرجلين ومزاجه وحظه كانت الباعث على هذه التفرقة .

فقد كان الجاحظ مرحا ، وكان محظوظا ، وكان معتمدا على علمه وحده على أنه غاية ووسيلة فى الوقت نفسه ، وكانت كتبه رائجة أعظم رواج فى عهده ، فشجعه هذا كله على التأليف .

ففى تاريخه مايدل على رواجها فى حياته . من ذلك أنه قيل لأبى هفّان ، لم لاتهجو الجاحظ ، وقد ندّد بك ، وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يُخدَع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى ، لما أمست إلا بالصين شهرة [٣] .

أما أبو حيان فكان ضائق الصدر ، منقبض النفس ، يائسا يائسا ، وكان فى أكثر عمره يريدالعلم وسيلة فحسب ، وسيلة إلى المال والشهرة والمجد ، كما

(١) مقدمة الحيوان ٥ (٢)معجم الأدباء ٦/٧٥ — ٧٨
(٣) معجم الأدباء ٦/٧١

بينا فى أخلاقه[١] . ولم يطل عمره ، كما طال عمر الجاحظ ، ولم يُقَيَّض لكتبه أن تذيع ، لينكب على التأليف ويكثر منه ، كما فعل الجاحظ .

— ٨ —

كان الجاحظ فى حياته وفى موته أعظم قدرا ، وأعظم شهرة ، وأبعد أثرا من أبى حيان .

وقد قُدِّر للجاحظ من يتأثر به ويحاكيه ويتشيع له كابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ﻫ) وأبى الفضل ابن العميد (المتوفى ٣٦٠ ﻫ) والمحسن التنوخى (المتوفى سنة ٣٨٤ﻫ) وأبى حيان التوحيدى (المتوفى سنة ٤١٤ ﻫ)[٢] .

أما أبو حيان فلم يقدر له شىء من ذلك كله ، ولم يقدر له بعد موته من يتأثره ويرسى مذهبه ، لأن طريقة معاصريه من أنصار الصناعة اللفظية شاعت واستقرت عدة قرون .

ثم جاء العصر الحديث فكانت كتب الجاحظ أعظم حظا من كتب أبى حيان ، لأنها معروفة ، وكان اسم الجاحظ رنانا ، فتأثر به كثير من كتاب العصر الحديث . على حين أن أبا حيان كان اسمه خافتا ، وكانت كتبه مجهولة ، وبقيت مخطوطة إلى عهد جد قريب ، فلم يتأثر به أحد .

فليس من المتوقع لكاتب كأبى حيان — حورب فى حياته ، واتهم بالزندقة ، وتشاءم بعض الناس من كتبه ، وأسخط الخاصة والعامة[٣] — أن يكون إماما يُقتَدى به فى فنه ، لأن النفوس غير مقبلة على قراءته ، ولأن كتبه لم تنفق كما نفق غيرها من كتب الجد ودين ، وربما كان اسمه بعد موته أقرب إلى التوارى والخفاء من الظهور والرنين ، وربما كان فضله أدنى إلى الجحود والخمود من قربه إلى الإقرار والاعتراف والذيوع .

(١) ، (٢) ، (٣) راجع الجزء الأول

لهذا لانجد من ورائه تلاميذ يذيعون فضله ، ويلاحون عنه ، ويشيدون على الأساس الذى بناه ، كما فعل هو مع الجاحظ مثلا ، وكما فعل مع أستاذه أبى سعيد السيرافى ومسكويه وأبى سليمان المنطقى وغيرهم .

على أن تلاميذه الذين ذكرهم السبكى ليسوا ممن ذاع أمرهم ، واشتهرت أسماؤهم .

ذكر السبكى من تلاميذه على بن يوسف ومحمد بن منصور بن حكان ، وعبد الكريم بن محمد الداودى ، ونصر بن عبد العزيز المصرى الفارسى ، ومحمد بن إبراهيم بن فارس الشيرازى ، وأبا سعد عبد الرحمن بن ممجة الأصبهانى[1].

والذى يظهر لنا أن أبا حيان سينال من التقدير والاحتفاء ما يعوض الإغفال الطويل .

(١) طبقات الشافية ٤/٣

الخاتمة

أما بعد

فهذه دراسة لأديب من قادة الفكر فى الشرق ، تواثبت عليه عوالم الظلم والإغفال دهرا طويلا ، منذ استل قلمه إلى عصرنا هذا .

وقد تكشفت هذه الدراسة عن عدة أمور :

— ١ —

كان أبو حيان التوحيدى الثمرة الكبيرة التى أنضجتها علوم عصره وأدبه ، فلم يكن فى القرن الرابع من يدانيه فى مزج العلم بالأدب ، أو فى التطواف بالقلم الفنى فى رياض المعرفة ، ليقطف من هاهنا ومن هاهنا ، ثم يصنع من قطافه ماتصنع النحلة ، حين تمتص رحيق الزهر ، ثم تخرجه رضابا شهيا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس .

(ا) فهو مُطلعة إلى المعرفة من أفانين شتى ، سواء أكانت متصلة بالإنسان أم بغيره ، وبالمادة أم بما وراءها .

لذلك بحث فى علم الفلك وقيمته ، وفى اجتماع أخلاق متباينة فى الإنسان ، وفى تفاوت الناس فى الفضيله ، وفى ولوع كل ذى علم بعلمه ودعواه أنه ليس فى الدنيا أشرف من علمه ، وفى أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم ، وفى أن مبدأ الجوهر الصورة والمادة ، ومبدأ الحكم النقطة والوحدة ، وفى العلاقة بين المنطق والنحو ، وفى الحركة والسكون وأيهما أقدم ؟

وفى الـكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ، وفى حقيقة الضحك وأسبابه ، وفى المعاد أهو حق أم تواطؤ من الأقدمين[١] ... الخ

وبحث فى الحسد الذى يعترى الفاضل العاقل من نظيره ، وفى المصادفة والاتفاق ، وفى الفراسة والمراد بها ؟ وهل هى صحيحة ؟ أو تصح فى بعض الأوقات دون بعض ، ولشخص دون شخص ؟ وفى الجبر والاختيار ، وفى الأمل والأمنية والرجاء ، وهل تشتمل على مصالح العالم ؟

وهل خلق الله العالم لعلة أو لغير علة ، فإن كان لعلة فما هى ؟ وإن كان لغير علة فما هى الحجة ؟ وفى ولوع الشعراء بالطيف ، وهل من الجائز أن ترد الشريعة من قبل الله بما يأباه العقل[٢] ؟ ... الخ

(ب) وهو كلف بالبحث عن العلل والأسباب ، نهم إلى الوقوف على البواعث الأولى لما يصدر عن الإنسان من أقوال وأعمال .

من ذلك بحثه فى سبب تفاوت الناس فى الفضيلة ، وفى سبب تفاوت وقع الألفاظ فى السمع ووقع المعانى فى النفس ، وفى سبب كتمان السر وعلة ظهوره ، وفى علة اختلاف الأجوبة فى المسائل العلمية[٣] ... الخ

ولماذا طلبت الدنيا بالعلم ولم يطلب العلم بالدنيا ؟

وما السبب فى اشتياق الإنسان إلى مامضى من عمره ؟

ولماذا يقبح الثناء فى الوجه ويحسن فى المغيب ؟

وما سبب الحياء من القبيح مرة والتبجح به مرة ؟

---

(١) المقابسات (٢) الهوامل والشوامل

(٣) المقابسات .

وما السبب فى الجزع من الموت ؟

وما مبدأ العادات المختلفة فى الأمم المختلفة ؟

وما الذى حرك الزنديق والدهرى على الخير وإيثار الجميل ، وهو لا يرجو ثوابا ، ولا ينتظر مآبا ، ولا يخاف حسابا ؟

وما السبب فى محبة الإنسان الرياسة ؟ ومن أين ورث هذا الخلق ؟ وأى شىء رمزت الطبيعة به ؟

ولم أفرط بعضهم فى طلبها ؟

ولم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق بهوآثره وكدح فيه،مع مايرى من صروفه ونكباته وزواله بأهله[1] ؟ ... الخ

— ٢ —

فإنتاجه كله ينطق بشوقه إلى المعرفة ، وشغفه بهـــا ، وكلفه بالتعمق والاستقصاء ، ونزوعه إلى معرفة العلل والأسباب .

وهو فى هذا كله ذو تعبير أدبى لا يقدر عليه إلا كاتب فنان .

ومن هنا يستحق أن نصفه بالكاتب العالم أو الكاتب المتفلسف .

ولسنا نبعد عن الصواب إذا ما ذهبنا إلى أنه الكاتب العربى الأول الجدير بهذا الوصف .

وإذا كان الجاحظ قد سبقه لمزج أدبه بالعلم ، فإن أبا حيان قد أربى على

---

(١) الهوامل والشوامل

الجاحظ ، لأن العلوم فى عصره كانت أوسع دائرة ، وأبعد آفاقا ، وأقرب إلى النضج والكمال .

— ٣ —

وقد تفرد أبو حيان بخصائص عدة فى تفكيره وطريقة عرضه وتعبيره .

ولو أن عصره قد أنصفه ، أو لو أن العصور اللاحقة وضعته فى مكانته التى يستحقها ، لصار زعيما عظيما من زعماء الكتابة العربية فى عصورها الذهبية .

لكن معاصريه لم ينصفوه ، بل إنهم تعمدوا أن يجحدوا فضله ، وينتقصوا قدره ، وجرى فى إثرهم مَنْ بعدهم ، فاتسبل الإغفال والإهمال والنظر الشَّزْر .

على حين أن كتاب الزخرف والصناعة نالوا من التقدير والتمجيد أضعاف ما يستحقون ، وعُدُّوا فى تاريخ الأدب من أصحاب المذاهب الكتابية والمدارس الفنية .

ولا شك أن تقديرهم هذا كان صدى لمكانتهم السياسية ، وللدعاوى التى بثها أنصارهم وتلاميذهم ، كما كان مرضا من أمراض الذوق الأدبى الذى استهواه الزخرف ، وأرضته ضحولة الفكر ، ومهاره التكلف ، فغفل عن روعة التعبير، وصدق العاطفة ، وعمق التفكير ، وثراء النص .

— ٤ —

وقد تميز من معاصريه الكتاب بعدة مميزات ، وشابههم فى سمات ، تحدثنا عنها فى فصل خاص .

لكن وجوه الامتياز أكثر وأقوى من وجوه الاتفاق ، لأن نواحى المشابهة

كانت ضرورة من ضرورات العصر والبيئة ، ولم يكن على أبى حيان من بأس فى الإذعان لها ، والجريان فى اتجاهها .

أما مناحى المخالفة فإنها استجابة لشخصيته ، وثمرات لعقليته ، ودلالة على تفرده وقدرته .

— ٥ —

وحسبُ أبى حيان فى مجال التقدير والموازنة أنه تميز بعدة خصائص ، أهمها :

١ — الاحتفال بالفكرة ، والجرى وراء الحقيقة ، والشوق إلى الوقوف على السبب والعلة ، مع العناية بالعبارة عناية تسمو بها فى أكثر ما كتب إلى الذروة من الإجادة والافتنان.

٢ — اتخاذ النثر الفنى وسيلة للتعبير عن التصوف والدعاء والابتهال ، والاستغناء بتقطيعه وتقسيمه وموسيقاه والعاطفة المتقدة التى أزجته ، عن القصائد والمقطعات .

— ٦ —

وإذا كان أبو حيان قد أعجب بكتب الجاحظ وبطريقته ، فإن دراسة أدبه تكشف عن تشابه بينهما ، وتكشف عن تخالف لا يقل عن التشابه ، بل إنه يزيد .

وقد تبين أن التخالف يرجع إلى مزاج كل من الرجلين وبيئته .

فالجاحظ فكه مرح ، وأبو حيان جاد صارم . والجاحظ جَدِل ، وأبو حيان منطقى . والجاحظ معتزلىّ ، وأبو حيان صوفىّ . والجاحظ مولع بالاستطراد ،

وأبو حيان لا يستطرد فى الموضوع الواحد .

والجاحظ قدير على إثبات الفكرة ونقضها ، وتحسين الشىء وتزيينه ، وكثير من أدبه صدًى لعقله وهواه .

أما أبو حيان فكاتب ذو عقيدة ، لم يصدر إلا عن عاطفة ، ولهذا لم يتناقض مع نفسه ، ولم ينحرف بقلمه إلى اليمين مرة وإلى اليسار مرة .

وهكذا كان اختلاف التلميذ وأستاذه ، أكثر من اتفاقهما كما بينا فى الموازنة بينهما .

— ٧ —

على أن الخصائص التى امتاز بها أبو حيان لم تكن خصائص الجنس الآرى ، كما يحلو لبعض الدارسين أن ينسبوه إلى الفرس . فقد اتضح فى دراسة أصله أنه عربى ، وأنه لم يعرف اللغة الفارسية ، وقد جهر هو بذلك مرات .

وإذاً فهى خصائص الشخصية والثقافة والاجتهاد ، لا خصائص الآرية التى يَجْتهِدُ أنصارها فى أن ينسبوا إليها كل مزية من مزايا التفكير والاستقصاء واستكناه العلل الخفية ، والبحث عن المجهول .

— ٨ —

ولست أشك فيما هدتنى إليه دراسة أبى حيان من أنه اتّهم بالزندقة زوراً ، فقد كان الرجل متديناً سليم العقيدة ، واختتم حياته بالتصوف قولا وفعلا ، ودفن فى مقابر المتصوفة ، وصلى عليه شيخهم .

— ٩ —

كما لا أشك فى أنه اتهم بالوضع ، للتهوين من قدره والغض من شأنه ، حتى لا يوثق فيما يرويه . ولقد وضحت أن رسالة أبى بكر وعمر إلى علىّ التى رواها أبو حيان ، وزعموا أنها من اختراعه ، ربما كانت مدسوسة عليه وصدّقها ، وربما كان الواضعُ لها أبو حامد المروروزى الذى رواها أبو حيان عنه .

والذى يزيّنُ لنا هذا الدفع أننا لم نجد أرباً لأبى حيان فى اختلاق هذه الرسالة ، وأننا عرفناه أميناً دقيقاً فى جميع ما سجل من آراء غيره ، سواء أقرأها أم سمعها . لكننا لا نستبعد أن يكون أبو حيان قد أجرى قلمه فيما سمع ، فصارت الرسالة أشبه بأسلوبه ، وصار كالواضع لها .

— ١٠ —

ويجدر بنا فى هذه الخاتمة أن ننوه بأن أبا حيان قد اتصل بوزراء عصره ، وحرِمَ الرعاية من ابن عباد وابن العميد ، فهجاهما فى كتاب خاص .

لكنى ذهبت إلى أن ابن العميد المقصود ليس هو أبا الفضل محمد بن الحسين ابن العميد الملقب بالأستاذ والرئيس وذى الرياستين صاحب الطريقة المعروفة فى الكتابة . وإنما هو أبو الفتح على بن محمد بن العميد الملقب بذى الكفايتين . أى أن المقصود هو الابن لا أبوه ، وقد تولى الوزارة بعد أبيه ، فهو الذى اتصل به أبو حيان ، وهو الذى هجاه .

— ١١ —

وإذا كنا قد أنصفنا أبا حيان فإن هذا الإنصاف لا يمنعنا من أن نحمِّله بعض التبعة فيما لقي من وزراء عصره ومن معاصريه .

فقد كان في أخلاقه ضعف لو برىء منه لنال من التقدير أضعاف ما نال ، ولسلم من التحامل عليه ، وتعقبه بالأذى فيما فعل أو قال .

— ١٢ —

وإذا كنت قد ألممت بالقرن الرابع في دراستي لأبي حيان ، وطوّفت معه حيثما طوف ، ودرست أخلاقه فإن هذا — في رأيي — عمل لا مندوحة عنه في الإحاطة بالمؤثرات في أدبه وعلمه .

وإذا كنت قد حللت كتبه كلها ، وعقبت بنماذج من كل كتاب ، فإنما أردت بهذا أن أزيد القارىء تعريفاً بإنتاجه ، واتصالا به ، وأن أمهد تمهيداً عملياً موثوقا به للكشف عن خصائصه .

وأرجو أن أكون على صواب فيما آخذ به نفسي من الاعتماد في الدراسة على النص أكثر من الأخذ بما قيل عن الأديب من آراء وأحكام .

— ١٣ —

وإني — وقد فرغت من دراسة أبي حيان — لأتطلع إلى من ينهضون بإخراج ما بقي من كتبه .

وأتطلع إلى أن يسلك أبو حيان فى صدارة الأدباء الكبار الذين يدرسون .

وأشتاق إلى العناية بأدباء العبارة الرائعة والفكرة العالية أكثر من أدباء البهرج والزخرف ، فليس الأدب طلاء وبريقاً وبراعة فى الخديعة والاحتيال ، وإنما الأدب وسيلة للإمتاع ، وغذاء للمشاعر والعواطف والعقول ، وهداية للناس ، وتبصرة لهم بنواحى الحق والخير والجمال .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

١ – أبو حيان التوحيدى : الدكتور عبد الرزاق محي الدين . مكتبة الخانجى ١٩٤٩ ،

٢ – اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا : المقريزى . مطبعة دار الأيتام العربيـة بالقدس .

٣ – الإشارات الإلهيـة : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى . مطبعة جامعة القاهرة .

٤ – الإمتاع والمؤانسـة : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ .

٥ – أمراء البيـان : الأستاذ محمد كرد على . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥ – ١٩٣٧ .

٦ – البخلاء . الجاحظ : تحقيق الأستاذين أحمد العوامرى وعلى الجارم . مطبعة دار الكتب ١٣٥٨ – ١٩٣٩

٧ – البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد صقر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ – ١٩٥٣ .

٨ — تاريخ الحكماء مختصر الزوزني من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي . ليبسك ١٣٢٠ هـ

٩ — تاريخ الفلسفة في الإسلام: تأليف دي بور . ترجمة الأستاذ محمد أبو ريدة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ — ١٩٣٨ .

١٠ — تجارب الأمم : ابن مسكويه . مطبعة شركة التمدن بمصر ١٣٣٣ — ١٩١٥ .

١١ — تقريظ الجاحظ : أبو حيان التوحيدي . مقتبسات منه في معجم الأدباء .

١٢ — تهذيب الأخلاق : ابن مسكويه . مطبعة والدة عباس بالقاهرة ١٣٢٣ — ١٩٠٥

١٣ — ثلاث رسائل للجاحظ : نشرها يوشع فنكل . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .

١٤ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز . ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة . مطبعة لجنة التأليف ١٣٥٩ — ١٩٤٠ .

١٥ — الحيوان : الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

١٦ — دائرة المعارف الإسلامية : المجلد الأول . أبو حيان التوحيدي بقلم مرجليوث .

١٧ — دراسات في العصور العباسية المتأخرة : الدكتور عبد العزيز الدوري . بغداد ١٩٤٥ .

١٨ — الدولة العباسية : الأستاذ حسن خليفة . المطبعة الحديثة بمصر ١٩٣١ .

١٩ — ذيل تجارب الأمم : أبو شجاع محمد بن الحسين . مطبعة شركة التمدن بالقاهرة ١٣٣٤ — ١٩١٦ .

٢٠ — الرســـالة : القشيرى . مطبعة صبيح ١٩٤٨ .

٢١ — الزلفـــة : أبو حيان التوحيدى . مقتبسات منه فى ذيل تجارب الأمم .

٢٢ — شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد . مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ١٣٢٩

٢٣ — شيراز نامه : أبو العباس أحمد بن أبى الخير زركوب . طهران ١٣٥٠ .

٢٤ — صبح الأعشى : القلقشنــدى . مطبعة دار الكتب ١٣٤٠ — ١٩٢٢ .

٢٥ — الصداقة والصديق : أبو حيان التوحيــدى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠١ .

٢٦ — طبقات الشافعية : السبكى .

٢٧ — الطواســين : الحلاج . نشره الأستــاذ ماسينيون . باريس ١٩١٣ .

٢٨ — العلوم (رسالة ملحقة بالصداقة والصديق) : أبو حيان التوحيدى . مطبعة الجوائب ١٣٠١ .

٢٩ — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلاميـــة : محمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى . مطبعة الموسوعات ١٣١٧ .

٣٠ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ابن حزم .

٣١ — فوات الوفيات : ابن شاكر . مطبعة بولاق ١٢٨٣ .

٣٢ — اللمع فى التصوف : الطوسى . نشره نيكلسون . مطبعة بريل بليدن ١٩١٤ .

٣٣ — مثالب الوزيرين : أبو حيان التوحيدى . مقتبسات منه فى معجم الأدباء .

٣٤ — مجموع رسائل للجاحظ : نشرها باول كراوس والدكتور محمد طه الحاجرى . لجنة التأليف ١٩٤٣ .

٣٥ — مجموعة رسائل للجاحظ : مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤ .

٣٦ — المحاضرات والمناظرات : أبو حيان التوحيدى . مقتبسات منه فى معجم الأدباء .

٣٧ — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الأستاذ محمد الخضرى .

٣٨ — مروج الذهب : المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

٣٩ — معجم الأدباء : ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى .

٤٠ — المقابســـات : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذ حسن السنــــدوبى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧ — ١٩٢٩ .

٤١ — مقامات بديع الزمان الهمذانى : مطبعة المعاهد بمصر ١٣٤٢ — ١٩٢٣

٤٢ — مقدمة الإمتاع والمؤانسة : الأستاذ أحمد أمين .

٤٣ — مقدمة البصائر والذخائر : الأستاذ أحمد أمين .

٤٤ — مقدمة المقابسات : الأستاذ حسن السندوبى .

٤٥ — مقدمة الهوامل والشوامل : الأستاذ أحمد أمين .

٤٦ — الملل والنحل : الشهرستانى . تحقيق الأستاذ محمد فتح الله بدران . مطبعة مخيمر ١٣٧٥ — ١٩٥٦ .

٤٧ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : الذهبى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥

٤٨ — النثر الفنى فى القرن الرابع : الدكتور زكى مبارك . مطبعة دار الكتب ١٣٥٢ — ١٩٣٤ .

٤٩ — نهاية الأرب : النويرى . مطبعة دار الكتب .

٥٠ — الهوامل والشوامل : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠ — ١٩٥١ .

٥١ — يتيمة الدهر : الثعالبى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ .

الفهرس

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة

صدر منها : (من سلسلة حياة المجتمعات)

١ — قصة الملكية فى العالم : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى والدكتور حسن سعفان

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد الحوفى

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة

١١ — الحرية العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف

١٢ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

١٣ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) . من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الدكتور أحمد الحوفى

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

الكتاب السابع من هذه السلسلة :

« داروين »

بقلم

الأستاذ الدكتور سيد بدوى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة الرسالة

شارع محمود المناوي ٣ [illegible]

الثمن ١٥ ص